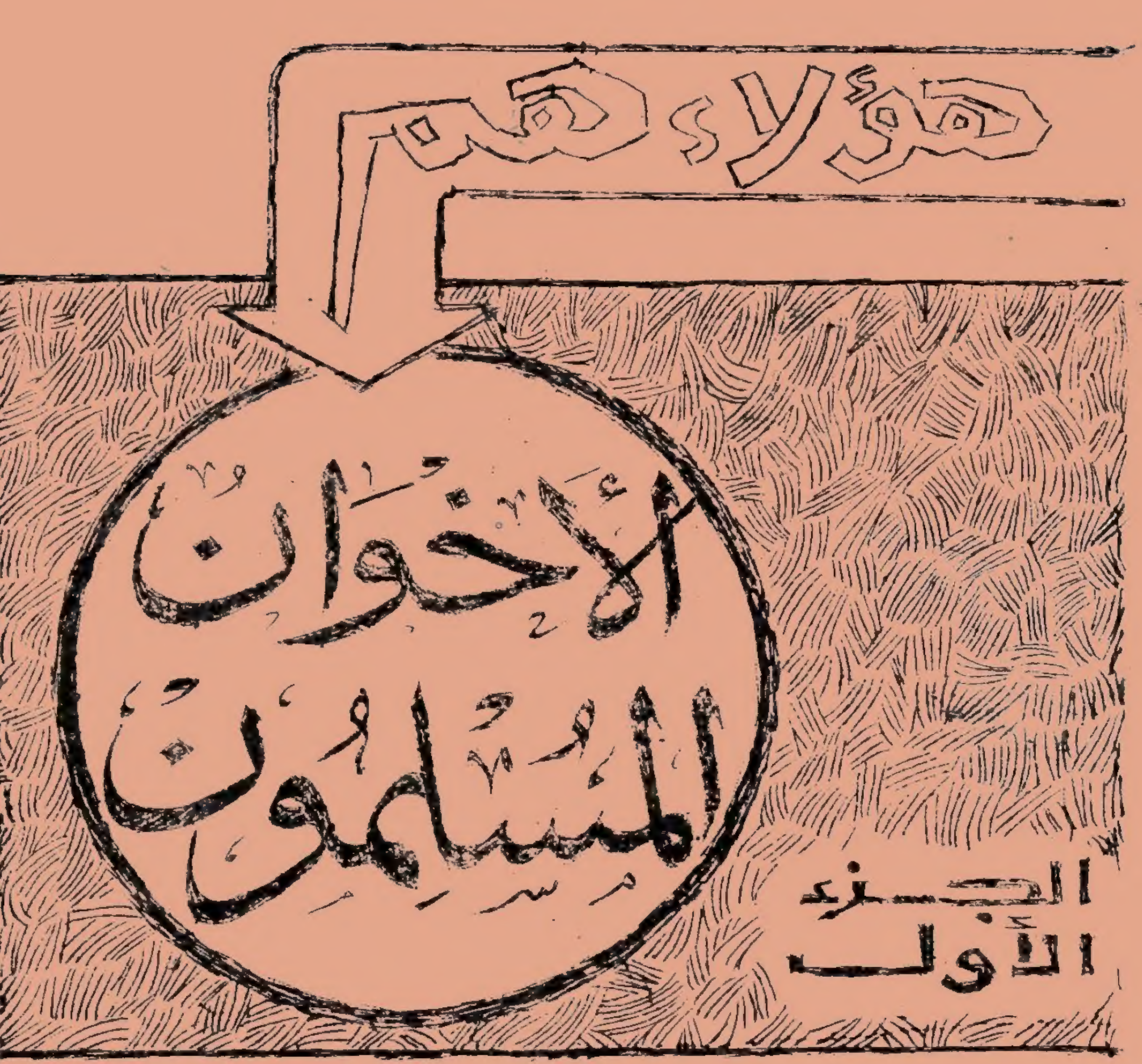
الاخوان الجمهوريون



الطبعة الاولى - رمضان ١٣٩٨ اغسطس ١٩٧٨

هؤلاء هم الإخوان المسلمون

الكتاب الأول

الإهداء :-

إنما يُهدى هذا الكتاب إلى
عامة الناس!! وبوجه عام..
ولكنه، إنما يُهدى بوجه خاص،
إلى الاخوات المسلمين !! .
ويُهدى بوجه أخص إلى
قاعدة التنظيم من الشباب!!

تبيّنوا أمركم، فإن هذه
الدعوة، إنما هي فتنة !!
لاخير يرجى من ورائها !!
لا خير في شجرتها !!
ولا خير في ثمرتها !!
وأنت لا تجنى من الشوك العنب!!

بسم الله الرحمن الرحيم

« وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ۞ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون .. »

صدق الله العظيم

المقدمة :

يقدم هذا الكتاب دراسة نقدية لتنظيم «الاخوان المسلمين» تتناول، في بابها الأول، المقومات الفكرية لهذا التنظيم، موزونة بميزان «التوحيد»، ومقاسة إلى حكم الوقت، ومراد الدين.. وذلك إعتماداً على أبرز أقوال مؤسس الدعوة : الشيخ حسن البنا، ومفلسفها : الأستاذ سيد قطب، وذلك في الدلالة على هذه المقومات الفكرية.. كما تتناول هذه الدراسة، في بابها الثاني، ممارسات هذا التنظيم في مصر، موطنه الأول، وفي السودان، موطنه الثاني، وذلك من حيث أنه تنظيم يستغل الدين، في الأغراض السياسية التي تستهدف الوصول الى السلطة، أو إحتوائها..

فليس هذا الكتاب بحثاً «أكاديمياً» يستقصي تاريخ هذا التنظيم، ويرصد مواقفه، ويترجم لمؤسسيه ومفكريه، ويتناول سائر كتاباتهم — شأن البحوث الأكاديمية في هذا المضمار..

وتنظيم الاخوان المسلمين، من حيث الفكرة، إنما هو صورة للفهم الديني الذي تقوم عليه، اليوم، سائر الدعوات الاسلامية : كالطائفية، والوهابية، وسائر المؤسسات الدينية : كالأزهر، ورابطة العالم الإسلامي، والجامعات الاسلامية، وكليات الشريعة، ووزارات الشئون الدينية.. وتلاميذ هذه المؤسسات من الفقهاء، والقضاة الشرعيين، ومعلمي مناهج الدين..

فتنظيم الأخوان المسلمين لا يختلف عنها الآن حيث أنه تنظيم له فعالية الحركة «المنظمة» في السعي الى احراز السلطة لتطبيق فكرته .. ولذلك قامت بين هذا التنظيم وهذه الدعوات، والمؤسسات الدينية علاقات عضوية، لا تتفاوت إلا بين درجتي التعاطف، والتحالف - كما سنرى في هذا الكتاب ..

ولذلك فإننا سنتناول في هذه المقدمة ذلك الفهم الديني المشترك بين الاخوان المسلمين وهذه الدعوات والموسسات الدينية، في ضوء الفهم الصحيح للإسلام الذى تطرحه «الدعوة الإسلامية الجديدة»، وهي تقيم عليه الحجة، وتقدم له السند من القرآن الكريم، والسنة النبوية ..

الشريعة ليست هي الدين !!

هذا الفهم الديني الشائع الذى يمثل الأخوان المسلمون رأس السهم فيه انما يقوم على الدعوة الى «تحكيم» الشريعة الاسلامية بكل صورها، من جديد، في حياة الفرد، وفي حياة الجماعة، اليوم .. وهذا الفهم انما يعوزه الفهم الدقيق لروح هذه الشريعة، ولروح هذا العصر .. فلدى الفهم الدقيق فإن هذه الشريعة ليست هي الدين !! وانما هي المدخل على الدين - هي الطرف القريب الذى تنزل من الدين، في القرن السابع الميلادى، الى أرض الناس لينظم حياتهم وفق طاقتهم وحاجتهم، البسيطتين، المحدودتين، يومئذ .. ولا يزال الدين أمامنا لنستنبط منه شريعة جديدة تستوعب حاجة، وطاقة الفرد، والجماعة، في القرن العشرين الميلادى .. ولا يكاد المرء يحتاج الى التدليل على مبلغ ما تطور اليه الفرد، أو المجتمع، خلال القرون السالفة، من نضج، واستواء، فذلك أمر جدٌّ ظاهر ..

واستنباط هذه الشريعة الجديدة ليس نبوة جديدة، ولا وحياً جديداً، فقد ختمت النبوة بهذا النص الصريح: ((ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله، وخاتم النبيين..)).. حتى لقد استقر جميع خبر السماء بين دفتي المصحف.. ولكن هذا لا يعني، على الإطلاق، أنه ليس هناك أمر في الدين مستأنف تنتظره البشرية.. ذلك بأنه لا بد من فهم جديد للقرآن، مؤدب بأدب القرآن، وبمنهاج التعلم القرآني: ((واتقوا الله، ويعلمكم الله)) - فهم جديد للنصوص القرآنية القديمة - فهم ينفذ إلى أصول القرآن ليستنبط منها شريعة جديدة تتوفر على حل مشكلات الحياة المعاصرة.. وفيما يلي صورة لهذا الفهم.

لقد ظل القرآن الكريم يخاطب الناس، طوال العهد المكي، على أساس أنهم أحرار، ومسئولون عن حق الحرية، ويمنع كل صور الوصاية عليهم.. وذلك بمثل قوله: ((فذكر!! إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر!!)).. وقوله: ((وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر!!)).. إلى غير ذلك من الآيات المكية التي ترسي الحقوق الأساسية للبشر.. وجماعها حق الحياة، وحق الحرية.. فتسوي بينهم في الحقوق وفي الواجبات، بلا تمييز بسبب العنصر، أو العقيدة، أو الجنس (الذكورة والأنوثة).. وهذه الحقوق الأساسية إنما هي أصل أصول الدين، وجماع أغراضه، على الاطلاق، لأنها إنما تقرر الكرامة البشرية التي إمتاز بها البشر على سائر أنواع الخليقة.. والأصل في الإسلام أن الإنسان حر.. فإذا أحسن التصرف في هذه الحرية، لم يكن عليه من سبيل: ((ما على المحسنين من سبيل))، وإذا أساء التصرف في هذه الحرية، بأن أظهر قصوره عن أداء واجبها، (إذ لكل حق واجب يقابله) صودرت منه: ((جزاءً

وفاقاً »، مصادرة مؤقتة، فيها يتعلم حسن التصرّف فى حق الحرية، فى مستأنف تجربته، فيسترد هذا الحق كاملاً ..

ولقد عبّر المجتمع "الجاهلى" عن رفضه للدعوة الإسلامية، التى تدعو إلى عقيدة التوحيد، ونبذ عقيدة التعدد، بشتى صور الرفض، حتى لقد بلغ حدّ التآمر على حياة صاحب هذه الدعوة !! فظهر، بذلك، ظهور التجربة التى تقسام عليها الحجة،: « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ..

ان الفرد البشرى، فى عمومه، يومئذ، قد كان قاصراً عن النهوض بواجب المسئولية الكاملة عن حق الحرية، وكذلك فرضت عليه شريعة الوصاية الرشيدة، وذلك عقب الهجرة، من مكة إلى المدينة، حيث نزلت آيات القرآن المدنى، ناسخة لآيات القرآن المكى، فى مستوى التشريع العام .. فنسخت آية السيف وأخواتها آيات الإسماح والحرية، ونسخت آية الشورى آيات الديمقراطية، ونسخت آيات الرأسمالية آيات الاشتراكية، ونسخت آيات قوامة الرجال على النساء، آيات المساواة بين الرجال والنساء .. وهكذا أديل التشريع، فى أسلوب الدعوة، وفى نظام الحكم، وفى نظام الاقتصاد، وفى نظام الاجتماع، من مستوى الحرية إلى مستوى الوصاية .. « وسنتناول تفصيل ذلك عند حديثنا عن الجهاد، وعن الديمقراطية، وعن الاشتراكية، وعن حقوق المرأة فى متن هذا الكتاب » ـ فقامت الشريعة الموروثة بين أيدينا اليوم، على مستوى الوصاية ناسخة لمستوى الحرية .. فقامت بذلك، على فروع القرآن ناسخة لأصوله ..

الشريعة ليست هى السنّة !!

ولقد نسخت آيات الوصاية آيات الحرية، كتشريع عام للأمة،

وذلك على حسب طاقتها وحاجتها، يومئذ، بينما ظلت آيات الحرية هذه هى عمدة عمل النبى، صلى الله عليه وسلم، فى خاصة نفسه، وذلك تشريعاً فردياً له فيما يطيق هو ويحتاج .. فهو، وحده، الذى كان، يومئذ، فى ذلك المجتمع القاصر، مسئولاً مسئولية كاملة، وحراً حرية فردية كاملة.. فكان عمله فى المال، مثلاً، الزكاة الكبرى - إنفاق العفو وهى الركن التعبدى الأصلى، والذى لم يُنْزَلْ منه إلى الركن التعبدى الفرعى - الزكاة ذات المقادير - إلا بسبب حكم الوقت .. (وسنتناول ذلك بتفصيل أكثر عند حديثنا عن الاشتراكية فى هذا الكتاب) - وكانت صلاة الثلث الأخير من الليل فرضاً مكتوباً عليه، بينما لم تكن فى حق الأمة إلا من قبيل الندب والتطوع .. هذان مثلان للتفريق بين السنّة والشريعة، فإن ما عليه الفهم الدينى السائد اليوم، أن السنّة والشريعة، إنما يعنيان شيئاً واحداً !! وهو فهم قد آن الأوان لتصحيحه .. ذلك بأن الوقت الحاضر إنما هو وقت إحياء السنّة، وذلك لحاجة البشرية الماسة إلى بعث الاسلام، وبعث الاسلام، جاءت به البشارة النبوية هكذا: ((بدأ الاسلام غريباً، وسيعود غريباً، كما بدأ، فطوبى للغرباء !! قالوا: من الغرباء يارسول الله ؟؟ قال: الذين يحيون سنتى بعد اندثارها !!)) .. وإحياء السنّة إنما يجب أن يقوم على فهم صحيح للسنّة .. فالسنّة إنما هى عمل النبى الكريم فى خاصة نفسه، وما يتعلق بهذا العمل من قول .. أما قوله وإقراره اللذان أراد بهما إلى التشريع والتعليم للناس فى ذلك القرن، فى مستوى مايطيقون وما يحتاجون، فلا يلحق بسنته .. وإنما هما يلحقان بالشريعة ..

تطوير التشريع الإسلامي :

التفريق بين الدين والشريعة ، أو بين السنّة والشريعة ، إنما يطرح مسألة تطوير التشريع الإسلامي ، توّاً ، وبإلحاح !! فلبعث ، ولتحكيم الاسلام في حياتنا ، من جديد ، لا بد من تطوير التشريع الإسلامي !! وهذا التطوير ليس خروجاً عن القرآن الكريم ، وليس تطويعاً متعسفاً لنصوصه لتناسب الحياة المعاصرة !! كلا !! إنما هو إنتقال من نص إلى نص في القرآن .. إنتقال من نص فرعي إلى نص أصلي فيه ، فهو ، بذلك ، دخول في الدين أكثر ، واستلهام لأغراضه أكثر .. ذلك أن النص الفرعي ما نزل من النص الأصلي ، فنسخه ، إلا لحكم الوقت .. واليوم ، فإنا ، إنما نرجع بتشريعنا من النص الفرعي إلى النص الأصلي ليبسخه ، بسبب من حكم الوقت ، أيضاً .. فالوقت وقت الحرية ، لا وقت الوصاية .. هو وقت الحرية السياسية ، المتمثلة في الديمقراطية ، ووقت الحرية الاقتصادية ، المتمثلة في الاشتراكية ، ووقت الحرية الاجتماعية ، المتمثلة في المساواة بين الناس ، وعدم التفريق بينهم بسبب الذكورة والأنوثة ، أو بسبب الدين ، أو بسبب عدم الدين !!

فتطوير التشريع الاسلامي ، بذلك ، إنما هو إنتقال من العمل بالشريعة ، إلى العمل بالسنّة .. هو اتجاه لجعل السُنّة ، وهي شريعة النبي الفردية ، شريعة جماعية ، لعامة الناس ، بقدر ما يطيقون منها ، وما يحتاجون ..

دعوة الاخوان المسلمين إلى تحكيم الشريعة

قال مؤسس هذه الدعوة ، ومرشدها الأول ، الشيخ حسن

البنّا ، في مجموعة رسائله ، وتحت عنوان : « أصلحوا القانون » :
« إن لكل أمة قانوناً يتحاكم إليه أبناؤها ، وهذا القانون يجب أن يكون مستمداً من أحكام الشريعة الاسلامية ، مأخوذاً عن القرآن الكريم ، متفقاً مع أصول الفقه الإسلامي » !! ص ١٤٨ .. وهذه العبارات لا تحمل تفريقاً دقيقاً بين الشريعة والقرآن ، من حيث أن الشريعة إنما كانت تمثل فروعه ، بينما لا تزال أصوله تنتظر التطبيق - حيث ستقوم عليها شريعة جديدة ، ولقد بيّنّا نحن الفرق بين الشريعة والدين .. كما لا تحمل عبارات الشيخ البنّا تفريقاً دقيقاً بين الشريعة والفقه - حيث أن الفقه إنما هو القول بالرأي فيما ليس فيه نص شرعي - ولقد نشأ الفقه على أيدي من أصبحوا يُعرفون بالفقهاء وأظهرهم أصحاب المذاهب .. ولقد أخذ هؤلاء يعملون الرأي فيستنبطون ، ويقيسون ، ويجتهدون حتى تداعى بهم الرأي إلى البعد عن روح الشريعة وروح الدين ، ولم يسفروا إلا عن هذه المتون والحواشي والشروح ، والمطوّلات والفروض ، التي حجّرت الدين ، وبعدت به عن بساطته ونقائه ، وزهّدت الشباب المعاصر فيه ، وصرفته عنه .. والاخوان المسلمون ، بذلك ، إنما يدعون إلى تحكيم الشريعة الموروثة في هذا العصر الذي استعدّت فيه البشرية ليشرع لها في مستوى أصول القرآن ، والسنة النبوية ، تشريعاً إسلامياً جديداً يستوعب طاقاتها ، ويُلبّي حاجاتها ، بعد أن أدّت بعض صور هذه الشريعة الموروثة دورها كاملاً في خدمة هذه البشرية - أدّته حتى استنفدته !! إن العيب ليس هو عيب هذه الشريعة ، وإنما هو عيب العقول التي تريد أن تنقلها ،

بجميع صورها، لوقت غير وقتها، ولأمة غير أمتها..

قال تعالى: ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم، من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾.. فاذا جاء الوقت لاتباع أحسن ما أنزل الينا من ربنا، وهو آيات الأصول التى قامت عليها السنّة، وذلك بأن نجعل السنة، وهى شريعة النبى الفردية، شريعة عامة لكل الناس، وننسخ ما هو دونها، وهو آيات الفروع التى قامت عليها الشريعة، فان الدعوة إلى تحكيم هذه الفروع، فى هذا الوقت - الدعوة الى تحكيم الشريعة الموروثة، من غير تطوير، إنما هى دعوة معوّقة لبعث الإسلام، ولإحياء السُنّة!! ونحن لا نرى إلا أن دعوة الاخوان المسلمين كذلك!! أكثر من ذلك!! فإن ضررها أكبر من ضرر المؤسسات الدينية، والدعوات الاسلامية الأخرى!! ذلك لأنها إنما تأخذ شكل العمل التنظيمى المؤثر، وتعمل بأسلوب العنف، والإرهاب، والإثارة، وتسعى لفرض أفكارها، إلى السلطة بكل سبيل.. ولذلك فإن هذه الدعوة، إنما تجسد أسوأ تناقضات ذلك الفهم الدينى السلفى، مع الشريعة، ومع العصر - كما سنبين فى هذا الكتاب..

إن هذا الكتاب إنما يستهدف تحديد هذه التناقضات وهذه المفارقات، التى يتورّط فيها الأخوان المسلمون، وذلك عن رغبة صادقة، منا، فى درء خطرهم على الناس، وفى استنقاذهم، هم، أنفسهم!! ولذلك فإن أشخاص مرشديهم، وزعمائهم، الأحياء منهم والأموات، إنما هى موضع احترامنا وحُبّنا!! ثم إننا لنستهدف، فوق ذلك، تمهيد الطريق أمام البعث الإسلامى

الصحيح الذى نعيش اليوم إرهاصاته المباركة، وفجره الصادق..

وسيصدر هذا الكتاب فى جزئين: أولهما يحوى الباب الأول الذى أشرنا إليه فى صدر هذه المقدمة، والثانى يحوى الباب الثانى.. والقول فى «تنظيم الاخوان المسلمين» ذو سعة، لأن المادة عنهم كثيرة، ولأن ممارساتهم مثيرة، ولكنا رأينا ان نتناول جوهر فكرتهم، وطائفة صالحة من ممارساتهم، فى مصر، وفى السودان، وفيها أوردنا الكفاية.. وعلى الله قصد السبيل..

الباب الأول

تنظيم الاخوان المسلمين فى مجال الفكرة

الفصل الأول

ضعف التوحيد لدى الأخوان المسلمين

إن مبلغ الأفكار من الصحة، أو الخطل، انما يلتمس، أول مايلتمس، فى مبلغ حظها من التوحيد.. فهى انما توزن، عند أهل التوحيد، بميزان التوحيد الدقيق، الذى لا يضل ولا يجور.. فإن كانت ضعيفة التوحيد كانت واهية الجذور، قريبة الفروع، بادية التخليط والتخبط، و كذلك جاءت «فكرة» الاخوان المسلمين!! وسنأخذ الأستاذ سيد قطب فى كتابه «معالم فى الطريق» نموذجاً لضعف التوحيد لدى هذه الجماعة، وهو من أكبر مفلسفيها، ان لم يكن أكبرهم على الاطلاق، وكتابه هذا أكثر المراجع تداولاً بين أفرادها، وأعمقها أثراً فى رسم تصورهم..

قال فى الباب الثانى من ذلك الكتاب: ((نحن اليوم فى جاهليـــة كالجاهلية التى عاصرها الاسلام أو أظلم، كل ما حولنا جاهلية، تصورات الناس، وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهـم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم.. حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيراً إسلامياً.. هو كذلك من صنع هذه الجاهلية)).. ثم حدد الاستاذ سيد قطب مهمة الاخوان المسلمين فى نفس الباب حين قال: ((إن مهمتنا الأولى هى تغيير هذا الواقع.. هى تغيير هذا الواقع الجاهلى من أساسه، هذا الواقع الذى يصطدم اصطداماً أساسياً بالمنهج الإسلامى، وبالتصور الاسلامى)).
- انتهى - الخطوط من تحت الكلمات من وضعنا ..

هكذا رسم أحد كبار مفكرى الأخوان المسلمين تصورهم للجاهلية الراهنة، وهو أنها: ((كالجاهلية التى عاصرها الإسلام او أظلم)) !!
ومن ههنا يبرز ضعف التوحيد فى فكرة الاخوان المسلمين بروزاً تاماً !! صحيح أن البشرية المعاصرة إنما تعيش الجاهلية الثانية، وقد عاشت فى القرن السابع الميلادى الجاهلية الأولى التى وجدها عليها الاسلام.. ولقد أشار القرآن الكريم الى هذه الجاهلية الثانية، إشارة لطيفة، حين قال: ((ولا تبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى !!)).. ولكن ليس صحيحاً أن هذه الجاهلية الثانية ((كالجاهلية التى عاصرها الإسلام أو أظلم)).. إن التوحيد ليقول بأن خط تطوّر الحياة البشرية، فى مجموعها، إنما يسير، فى مدى الأربعة عشر قرناً السالفة، أكثر من أى وقت مضى، صعداً إلى الكمال.. فقد قطعت البشرية شوطاً كبيراً، فى طريق الرجعى الى الله، بحيـــث

تحقيق جماع أغراض الدين، وهى كرامة الإنسان المتمثلة فى حريته، وذلك حين تتوافق على الأعراف والقوانين التى تتجه إلى إقرار الحقوق الأساسية للانسان.. وهذه الأعراف والقوانين، وإن كانت قد نشأت خارج ظل الشريعة الاسلامية.. فإنها ليست باطلاً مطلقاً (فالباطل المطلق لا يدخل فى الوجود) وهى إنما نشأت وفق الإرادة الالهية التى تسيّر الحياة، بحقها، وباطلها، إلى رضاء الله العظيم.. وقد قلنا، فى مقدمة هذا الكتاب، إن هذه الإرادة لامكان للباطل المطلق فيها، ومن ثم، فهذه الأعراف والقوانين ليست باطلاً مطلقاً.. بل إن حقها لأكبر من باطلها.. ثم إنها لتخطو خطوات واسعات لتهيئ الأرض لاستقبال أصول القرآن الكريم التى عندها، وحدها، تتحقق الحقوق الاساسية الكاملة للإنسان.. والبعث الاسلامى، اليوم، إنما يجئ لتهذيب هذه الأعراف، والقوانين، وللتسامى بها إلى أصول القرآن، حيث يتخذها بمثابة البناء التحتى له، عليها يقيم بناءه الفوقى.. فهو، اذن، لا يعمد إلى إلغائها، من أساسها، كما يرى الاستاذ سيد قطب، حين قال، عن مهمة الأخوان المسلمين: «هى تغيير هذا الواقع الجاهلى من أساسه».. ذلك بأن هذا الواقع، برغم ما به من جاهلية، ليس رجساً من عمل الشيطان!! وهو ليس، كما يعنى الأستاذ سيد قطب، حين قال: «من صنع هذه الجاهلية»!! وإنما هذا الواقع من صنع الإرادة الإلهية الهادية الحكيمة!!

وما هى هذه الأعراف، والقوانين، والثقافات، التى برعت

الأستاذ سيد قطب أنها تشكل جاهلية كالجاهلية الأولى أو أظلم؟؟
إن البشرية إنما تسير، في تطورها، كما يسير الفرد البشري، على رجلين : رجل المادة، ورجل الروح - وهي، في كل حركة، من حركات تطورها، إنما تقدم إحدى الرجلين على الأخرى .. فحينما تقدم رجل المادة على رجل الروح تسمى ذلك عهد « فترة » - وهي هي الجاهلية - وحينما تقدم رجل الروح على رجل المادة تسمى ذلك عهد « بعثة » - وهي تجديد الدين، وهي هي البعثة الإسلامي .. وقد قدمت البشرية، اليوم، ومنذ حين، في حركة من حركات سيرها، وتطورها، رجل المادة، وذلك إنما يتمثل في هذه الحضارة المادية الآلية التي لم يسبق لها ضريب في تاريخ البشرية .. وهي، الآن، إنما تحتشد، وتتأهب، لتقدم رجل الروح حتى تخطو خطوة في مجال البعث الإسلامي ليس لها ضريب في تاريخها أيضاً !!

ان لهذه الجاهلية الراهنة سلبياتها ولها إيجابياتها، غير أن إيجابياتها أكثر، بما لا يقاس، من سلبياتها : فها هي حركة الشعوب للتحرر من الاستعمار، ومن التفرقة العنصرية تحقق رصيداً هائلاً من الانتصارات .. وها هي الشعوب تتوافق على ميثاق منظمة الامم المتحدة الذي يرسي كثيراً من الحقوق الأساسية للإنسان، وتنضوي تحت لواء هذه المنظمة الدولية .. وها هو الرأي العام العالمي الذي يشجب العدوان، والاستغلال والتمييز، وأساليب العنف، يأخذ في التبلور، والبروز، فيخرج الإنسان، بذلك، من عهد الغابة حيث « الحق للقوة »، وحيث القوة الغاشمة تصنع الحق وتتقاضاه، إلى عهد المدنية، حيث « القوة للحق »، وحيث يحتكم الناس إلى القانون

الدستوري، الذي للضعيف فيه حق مساوٍ لحق القوي .. هاهــو العالم الحديث، والتكنولوجيا، توحّدان هذا الكوكب، عن طريق وسائل الاتصال، والمواصلات، توحيداً جغرافياً يكاد أن يكون تاماً .. ويُنجزان في مجال الكشف والإختراع، الانجازات المذهلة التي تيسر الحياة البشرية، وتؤمنها .. وهاهي المرأة تخرج من عهد قصورها الطويل، لتصل إلى أقصى مراحل التعليم، ولتتسنم أرفع الوظائف التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، ولتبدع في شتى مجالات الابداع الفني، و الأدبي والفلسفي، وهي التي كانت في الجاهلية الأولى إنما توأد حية مخافة الفقر، أو عار السبي !! هاهي الجماعة البشرية تتطلع إلى العدالة الاجتماعية الشاملة المتمثلة في الاشتراكية، والديمقراطية، والمساواة بين الناس، من حيث هم ناس .. وها هو الفرد البشري يتطلع إلى الحرية الفردية المطلقة، وهو يناضل ليخرج من وصاية كافة الأوصياء عليه، حتى يكون القانون الدستوري هو الوصي الوحيد على جميع الأفراد — رجالاً أكانوا أم نساء .. هاهي البشرية تبلغ في ميادين الآداب والفنون والثقافات أرقى ما بلغته من الحيوية الفكرية، والشعورية، ومن رقي الذوق العام، ومن رهافة الحس، ومن إتساع المدارك ..

إن هذا التراث البشري برمته إنما موروث البعث الإسلامي، و مادته الخام، يزنه بميزان التوحيد الدقيق، فيطرح سلبياته، وينمي ايجابياته الى حيث مراد الدين .. فإن كل ما وافق الفطرة السليمة، وحقق أغراض الدين (وجماعها تحقيق كرامة الإنسان) إنما هو من صميم الإسلام، والاسلام به أولى .. حتى هذه الفلسفات « الجاهلية »، والإلحادية منها، كالماركسية، إنما يجيء الإسلام

ليصحح أخطاءها، ويتسامى بأوجه الصحة فيها.. ولذلك فإن إعتبار الواقع الجاهلى بالملأ مطلقاً يتعين تغييره من أساسه إنما هى نظرة خاطئة توحيدياً.. ثم هى غير ممكنة عملياً !!

وضعف التوحيد هذا إنما مرده إلى الجهل بقانون حركة التطور.. وهو قانون التوحيد الكلى الذى يوحد بين المتناقضات.. فالإسلام إنما هو منهج لتوحيد المتناقضات، ولإيجاد كل متسق من المظاهر المختلفة فى الوجود.. وفى غياب العلم بقانون التوحيد هذا يجئ مثل قول الأستاذ سيد قطب عن «الواقع الجاهلى»: «هذا الواقع الذى يصطدم اصطداماً أساسياً بالمنهج الإسلامى، وبالتصور الإسلامى» !! ولذلك يرى الأستاذ سيد قطب: «تغيير هذا الواقع الجاهلى من أساسه».. فهو لا يرى إلا «إصطداماً أساسياً»، وصراعاً، محتدماً، لا توحداً، بين المتناقضات !! وبذلك يلتقى الأخوان المسلمون، من حيث لا يشعرون، مع الماركسيين، إلتقاءاً تاماً !! فالدياليكتيك الماركسى إنما هو صراع المتناقضات القائم على إختلاف النوع.. ومن هنا يجئ عنصر العنف، عند الماركسيين، كما يجئ عند الأخوان المسلمين لحسم الصراع، والتناقض، وذلك فى عهد خرجت فيه البشرية من عهد الغابة إلى عهد المدنية، فدخلت بذلك قيمة جديدة للتغيير، غير قيمة العنف، هى القيمة الفكرية، والخلقية ..

ان قيام دعوة الأخوان المسلمين على أسلوب العنف - كما سنرى فى أحد فصول هذا الكتاب، إنما مرده، أساساً، إلى ضعف التوحيد، حيث يرى مفكرو الأخوان المسلمين أن حسم الصراع يجب

العقائد والأفكار سيظل فى مستقبل البشرية، كما كان فى ماضيها، قائماً أيضاً على عنصر العنف، من غير إعتبار للظروف المرحلية الموضوعية التى أملت الجهاد فى الشريعة الاسلامية فى الماضى، ومن غير إدراك لكون الطبيعة البشرية المسالمة هى الفطرة، وأن الطبيعة البشرية المحاربة انما هى طبيعة عارضة، وهى مسخ للفطرة السليمة وهى إذن رهينة بملابسات التاريخ.. فالانسان انما من الله تعالى صدر، وإليه آيب، والله تعالى هو السلام..

والبشارات القرآنية، والبشارات النبوية، إنما تبشر بعودة الإسلام، من جديد، ليعقب هذه الجاهلية الثانية، فيرتفع إلى قمة جديدة لم يكن له بها سابق عهد. فها هو القرآن الكريم يقول: «هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً»، فظهور الإسلام على سائر الأديان، وعلى سائر الفلسفات، إنما هو أمر لا بد أن تستشرفه البشرية اليوم، طالما لم تشهده من قبل.. وقال النبى الكريم: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً، كما بدأ فطوبى للغرباء!! قالوا: من الغرباء يارسول الله؟ قال: الذين يحيون سنتى بعد إندثارها!!» فالاسلام، فى بعثه الجديد، إنما يقوم على إحياء السنة، وذلك، كما أسلفنا، فى مقدمة هذا الكتاب، بجعل هذه السنة، وهى شريعة فردية، تتعلق بعمل النبى فى خاصة نفسه، شريعة عامة لكل الناس، فى مناهجهم التعبدى، وفى تنظيمهم الإجتماعى.. وليتم بعث الاسلام، فى هذا المستوى، الذى لم تشهده البشرية من قبل،

لا بد أن يعقب جاهلية أرفع من الجاهلية الأولى التى أعقبها بعثة الأول.. ذلك بأن الجاهلية، في أى وقت، إنما هى الواقع الذى سيبنى البعث الاسلامى على ايجابياته بناءه الفوقى.. فعلى قدر درجة الجاهلية تقاس درجة البعث الاسلامى الذى سيعقبها، ولذلك فإن إعتبار الجاهلية المعاصرة ((كالجاهلية التى عاصرها الاسلام أو أظلم)) ، كما ذهب إلى القول سيد قطب، إنما هو دلالة على قصور التصور الصحيح لصورة البعث الإسلامى المرتقب.. وهذا القصور، كما بيّنّا، إنما مرده إلى ضعف الفكرة التوحيدية..

الفصل الثانى

إنعدام المذهبية المتكاملة عند الأخوان المسلمين

ومن أبرز سمات دعوة الاخوان المسلمين إنعدام المذهبية المتكاملة التى تطرح محتوىً فكرياً تفصيلياً يعالج قضايا السياسة، والاقتصاد والاجتماع.. هذا مع أن من أوجب واجبات الداعية الاسلامى، اليوم، أن يبرز إمتياز الإسلام على كل فلسفة إجتماعية معاصرة، وعلى كل دين، فى جميع قضايا الحياة العامة، بصورة علمية تقنع العقول الذكية.. لاسيما أن هذه الفلسفات إنما تطرح، اليوم، محتوياتها الفكرية التفصيلية حول هذه القضايا، وتتجه إلى تطبيقها فى واقع الحياة المعاش..

ومرد إنعدام المذهبية المتكاملة، عند الأخوان المسلمين إنما هو إلى القصور عن فهم حقائق الإسلام، وحقائق العصر..

مما جعلهم يعيشون تناقضاً شديداً بين الولاء للشريعة الموروثة التي لا يريدون تطويرها، وبين الاستجابة للحاجات الملحة، والطاقات الهائلة التي تزخر بها الحياة المعاصرة - فهم لم يستطيعوا أن يعيشوا هذه الشريعة في صدق، كما أنهم لم يستطيعوا أن يتفاعلوا مع روح العصر - ولذلك عمدوا إلى التعميم، وإلى التعمية وإلى التمويه، في كثير من آرائهم، لإخفاء ذلك القصور، وذلك التناقض.

ها هو هنداوى دوير، أحد كبار الأخوان المسلمين بمصر، يقول عن أستاذه الشيخ حسن البنّا: « فكان رأيه أن محاولة صياغة رأى الاخوان في القضايا التفصيلية، وكيفية تطبيق الشريعة الاسلامية على حياة المجتمع المعاصر هي محاولة، ضررها أكثر من نفعها، فاذا كانت صياغة مثل هذه قادرة على مواجهة الخصوم السياسيين الذين أخذوا على الأخوان دائماً أنهم يطرحون شعارات عامة ولا يقدمون حلولاً تفصيلية للمشاكل، فإنها تفتح الباب في نفس الوقت لشقاق كبير بين المسلمين أنفسهم لتعدد المذاهب والاجتهادات » -- كتاب « الأخوان المسلمون » لريتشارد ب متشيل.

أما الاستاذ سيد قطب فيرى أن السؤال عن تفاصيل دعوتهم انما هو لاحراج دعاتها !! ويدعوهم إلى الارتفاع عن ذلك! يقول: « إن الجاهلية التي حولنا، كما أنها تضغط على أعصاب بعض المخلصين من أصحاب الدعوة الإسلامية فتجعلهم يتعجلون خطوات المنهج الإسلامي، هي كذلك تتعمد أحياناً أن تحرجهم، فتسألهم: أين تفصيلات نظامكم الذى تدعون إليه ؟؟ ماذا

أعددتم لتنفيذه من بحوث ودراسات، ومن فقه مقنن على الأصول الحديثة؟؟» إلى أن يقول: «وهى سخرية هازلة يجب أن يرتفع عليها كل ذى قلب يحس لهذا الدين بحرمة!!» (معالم فى الطريق) صفحة ٥٨ - طبعة دار دمشق..

هكذا يرى مؤسسي دعوة الأخوان المسلمين أن تقديم رأيهم فى «القضايا التفصيلية» وفى «كيفية تطبيق الشريعة الإسلامية على المجتمع المعاصر» إنما هو «محاولة ضررها أكثر من نفعها!!» أما إذا كان يرى صلاحية الشريعة الإسلامية الموروثة لحل مشكلات الحياة المعاصرة، فلماذا يرى أن تقديم هذا الرأى بصورة مفصلة «محاولة ضررها أكثر من نفعها» وهو مطالب بإقامة الحجة على فضيلة هذه الشريعة على سائر الفلسفات المعاصرة، وعلى سائر الأديان فى تقديم الحلول المفصلة المبوبة للمشكلات المماثلة؟ إلا إذا كان يرى أن تقديم هذا الرأى المفصل قد يعرض هذه الشريعة فى صورة دون مستوى تطلعات وقدرات الحياة المعاصرة!!

والسبب الذى ساقه الشيخ البنا فى أن محاولة تقديم آرائهم التفصيلية حول القضايا المعاصرة إنما «هى محاولة ضررها أكثر من نفعها» لأنها «تفتح الباب لشقاق كبير بين المسلمين» وهم متعددو المذاهب والاجتهادات.. هذا السبب ليس له أدنى حظ من الإقناع، ذلك بأن الداعية الإسلامى الذى يثق فى صحة دعوته لا يخشى «تعدد المذاهب والاجتهادات» ومن ثم فهو لا يمكن أن يعمد إلى إخفاء الرأى التفصيلى لدعوته حول القضايا الحيوية التى يعايشها الناس!! ثم إن من يريد أن يدعو الناس إلى واضحة من

أمر الدين، فيصد عنهم الترك، إنما عليه أن يطرح الصورة المتكاملة لدعوته في مواجهة « المذاهب » المتعددة !! ثم هو يدير بينها وبين هذه المذاهب الحوار الفكري الرشيد، المؤدب بأدب الدين، حتى يلتقي الناس، في نهاية المطاف، حول المذهبية الصالحة، فتتم لهم بذلك الوحدة الفكرية الشاملة.. فإن ذلك خير من إخفاء المحتويات التفصيلية للدعوات إتقاء « للشقاق » بين المذاهب بينما الخلافات الفكرية قائمة فيما بينها، فعلاً..

ولماذا يعتبر سيد قطب أن السؤال عن تفصيلات النظام الذي يدعو إليه إنما هي محاولة لإحراجهم ؟! إن إنسان القرن العشرين، الذكي، المتفتح، الذي يسأل، ويستقصي، ويطلب الاقناع، وهو يتعرض لتيارات فكرية عالمية ومحلية متباينة، عن طريق تطور وسائل التعليم والإتصال، إنما صار سؤاله عن تفاصيل الدعوات المطروحة عليه حقاً طبيعياً ومشروعاً له.. لاسيما أن الإذعان الأعمى لم يعد اليوم هو قصارى ما تطالب به الدعوات الدينيات وغير الدينيات.. ولماذا يعتبر سيد قطب أن مثل هذا السؤال « سخرية هازلة يجب أن يرتفع عليها كل ذي قلب يحس لهذا الدين بحرمة » ؟!! إن حرمة الدين الحقيقية إنما تستمد من مقدرته على حل قضايا الانسان المعاصر، مقدمة في صورة تفصيلية مقنعة.. وليست حرمة الدين أمراً مبهماً يقوم على « ترفع » الدعاة عن أداء أوجب واجباتهم وهو التدليل على صلاحية الدين على حل مشاكل الحياة الماثلة !! فالداعية الإسلامي الجاد إنما يجب الاّ ينطلق من عقد نفسية تسول له أن يظن أن السؤال المشروع الذي يوجه إليه « سخرية

هازلة » به .

والحقيقة إن الأخوان المسلمين ، بسبب إنعدام المذهبية المتكاملة ، إنما لا يملكون الإجابة على مثل هذا السؤال !! فهم عاجزون تماماً عن إستنباط الحلول الفاصية المقنعة لمشكلات الحياة المعاصرة من الشريعة الاسلامية الموروثة . وذلك لأن هذه المشكلات لا تجد حلها في هذه الشريعة ، وإنما تجد حلها في الشريعة الجديدة التي تقوم على أصول القرآن والسنة النبوية التي لا يعرفون إليها السبيل .. أكثر من ذلك !! فقد اتخذ الأخوان المسلمون من العجز فضيلة فذهبوا ينسبون قصورهم إلى الإسلام !! يقول الأستاذ سيد قطب عن دعوتهم :

((إن قاعدة الدعوة أن قبول شرع الله وحده ، أياً كان ، ورفض كل شرع غيره ، أياً كان ، هو ذاته الإسلام ، وليس للإسلام مدلول سواه فمن رغب في الإسلام إبتداء فقد فصل في القضية ، ولم يعد يحتاج إلى ترغيبه بجمال النظام وأفضليته .. فهذه إحدى بديهيات الإيمان !!))

- " معالم في الطريق " ص ٤١ -

هذه هي قاعدة دعوة الاخوان المسلمين كما يقدمها سيد قطب !! ولكن كيف يتم ((قبول شرع الله وحده ورفض كل شرع غيره أياً كان)) ؟!

أليس واجب الداعية الاسلامي أن يبين فضيلة شرع الله على غيره من الشرائع حتى يتم قبوله ؟! وكيف يرغب الفرد البشري المعاصر في الإسلام من غير أن يقدم له في مستوى حل مشاكله الماثلة بتفصيل مقنع ؟؟ أم كيف ينشأ ((الايمان)) في نفس هذا الفرد من غير أن تبرز له افضلية الاسلام على غيره من الفلسفات والأديان في صورة مذهبية متكاملة تواجه الواقع المعاصر بكل تعقيداتـــه .

ومشاكله؟! والاخوان المسلمون انما يرون أن الاذعان الأعمى هو مدلول الإسلام «الذى ليس للاسلام مدلول سواه».. فيحكمون، بذلك، على هذا الدين بالقصور عن إقناع الانسان المعاصر، الذكى، الحائر، المتسائل.. ولذلك سيبقى السؤال الذى أشار اليه سيد قطب يواجه الاخوان المسلمين بإلحاح شديد: «أين تفصيلات النظام الذى تدعون إليه؟» وهو سؤال موضوعى، وطبيعى، وحياد، وليس «سخرية هازلة»، ولن يغنى فى الرد عليه الهروب الذى يلبسونه ثوب المنطق!!

الفصل الثالث

أسلوب العنف عند الأخوان المسلمين

مرحلية الجهاد فى الاسلام:

لقد جاءت الدعوة الإسلامية فى مكة تركز على الاقناع، وتمنع العنف، وتحترم الحرية، بصورة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ.. يقول تعالى لنبيه الكريم: «فذكر!! إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر»، إلى آخر هذه الآيات التى تنهى النبى الكريم، على ما عرف عنه من نزوع طبيعى إلى عدم السيطرة، عن السيطرة!! فلما أساء الناس التصرف فى هذه الحرية الواسعة التى كفلت لهم، برفضهم دعوة التوحيد، كما بينا فى مقدمة هذا الكتاب، صودر من حريتهم القدر الذى لا يطيقون حسن التصرف فيه.. فكانت هذه المصادرة بالنسبة للمشركين، وأهل الكتاب، عن طريق

الجهاد .. وكذلك شرع الجهاد .. فالسبب فى إستعمال العنف قد كان بسبب سوء التصرف فى ممارسة الحرية المتمثل فى الكفر .. قال تعالى: « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فإن إنتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .. ونزلت آية السيف ناسخة لجميع آيات الاسماح والحرية : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم » .. وهذه فى حق المشركين .. وقد نزلت فى حق أهل الكتاب آية الجزية :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .. و« صاغرون » معناها حقيرون ذليلون .. وهنا جاء الحديث الشريف : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويصوموا الشهر ، ويحجوا البيت ، فإذا فعلوا عصموا منى دماءهم ، وأموالهم ، إلا بحقها .. وأمرهم إلى الله .. » « وأمرهم إلى الله » تعنى أن الناس إنما لا يحملون على العقيدة المستكنة فى الصدور بالإكراه ، وإنما يحملون بالاكراه على الاذعان لسلطان المسلمين ..

والحكمة من وراء الجهاد فى الاسلام إنما هى طرف من الحكمة من وراء العذاب - عذاب الدنيا ، وعذاب الآخرة .. قال تعالى فى الأمر بالجهاد : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين » .. وهى حكمة تعليميـــة ..

فليس العذاب إلا تجربة أليمة ترد النفس إلى الجادة في مقبل حياتها الدنيا، أو الأخرى، وذلك بعد أن تكون قد خوطبت بسوء العاقبة فعجزت عن تخيلها.. قال تعالى، في حكمة العذاب التعليمية: ((ما يفعل الله بعذابكم، إن شكرتم، وآمنتم ؟! وكان الله شاكراً عليماً..))..

ولقد كانت الأمم المكذبة برسلها إنما تعذب بالعناصر الطبيعية كالطوفان، والريح، والصواعق، حيث يلاقي سائر أفرادها المكذبين الهلاك الذريع، ذلك بأن تلك الأمم قد كانت من الغلظة، والفظاظة، بحيث لا يفضي تعذيبها إلى الحكمة منه إلا بتلك الصورة الغليظة، الفظة.. ثم لما صار الناس إلى اللطافة ورهافة الحس هوناً ما، فصاروا يرتدعون بأقل من التعذيب بالعناصر الطبيعية المهلكة شرع الجهاد بالسيف، عند البعث الإسلامي الأول، فجعل تعذيب المكذبين بأيدي المؤمنين.. ولقد جاء في ذلك قوله تعالى: ((قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم، وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين..)).. تأمل!! يعذبهم الله ((بأيديكم)) هذه كرامة تحصل لأول مرة فيستبدل الله، في تعذيب المكذبين، أيدي المؤمنين بدلاً من العناصر الطبيعية، الصماء، التي تجتاح اجتياحاً، وتعمم تعميماً.. وهذه في حد ذاتها لطف ورحمة!! السبب الذي استحقوا به هذا اللطف هو، إلى جانب الفضل الإلهي، لطافة طبعهم نسبياً، ويقظة عقولهم.. ولقد قال تعالى في ذلك: ((وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم * وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون..)).. تأمل!! ((وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم))

وهذا محض الفضل، وفيه إشارة لطيفة إلى يقظة عقولهم مما أوجب التخفيف عليهم، وتحويل تعذيبهم من العناصر إلى أيدى إخوانهم المؤمنين.. ثم تجئ الاشارة الصريحة إلى ذلك فى قوله تعالى: ((وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون !!))

وفى خط التحول من العذاب بالعناصر الصماء إلى العذاب بسيوف ورماح المؤمنين يجئ قوله تعالى من آية شاملة وواضحة: ((قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم، أو من تحت أرجلكم، أو يلبسكم شيعاً، ويذيق بعضكم بأس بعض.. انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ؟!)).. هذه علة العذاب !! ((لعلهم يفقهون)) ..

وكما كان التعذيب ببأس الطبيعة مرحلة منصرمة - فى تاريخ الدعوات الدينية فإن للتعذيب ببأس الحرب (الجهاد) نفس المرحلية التى اقتضتها الظروف التاريخية المحيطة بتطور الفرد البشرى من الغلظة إلى اللطف.. والحكمة من وراء الجهاد بالسيف حكمة تعليمية كما أسلفنا، فالمكذب، يومئذ، قد إحتاج تجربة الحرب والموت، أو الخضوع لوصاية المؤمنين عن طريق السيف، وهو القاصر الذى لا يعرف مصلحته الحقيقية.. وكذلك شرع القتال فى الاسلام تلطفاً بالمدعوين من تحمل تبعة باهظة لا يقوون عليها، وهم قصر، وهى حسن التصرف فى الحرية.. كما شرع فى وقت كانت فيه الحرب لا تزال لها المقدرة على حل كثير من المشاكل.. والحرب - الجهاد بالسيف - لا يمكن أن تكون أصلاً من أصول الإسلام، وإنما أصل الاسلام السلام.. ولذلك فقد كان النبى الكريم يقول رجعنا من الجهاد الأصغر - الحرب - إلى الجهاد الأكبر - مجاهدة النفس بالرياضات

والقيادات.

سقوط أسباب الجهاد اليوم!!

وسبب لجوء الإسلام إلى السيف إنما يجيء من جهتين:

أولاهما المقاومة التي لقيها من أصحاب النفوذ، وممن وقعوا تحت تضليلهم، أو تحت إرهابهم، من المستضعفين، وأخراهما إستحالة الاقناع في وقت لم تكن العقول فيه مستنيرة بانتشار التعليم، ولا القلوب فيه سليمة بتوفر أسباب الأمن.. فالناس لذلك قد كانوا في طور قصور يحتاجون فيه إلى وصي رشيد يحملهم على مصلحتهم بالإكراه.. وأما اليوم!! فإن البشرية، في جملة أفرادها، قد قطعت مرحلة كبيرة نحو النضج والإستواء، بسبب انتشار وسائل التعليم، ووسائل الإتصال، وتوفر أسباب الأمن، وبروز كثير من مظاهر حكم القانون، وذلك بحيث صار أفرادها قادرين على رؤية الحق، وعلى التمييز الدقيق بينه وبين الباطل.. وصارت قوة الحق كافية لاحداث التغيير إلى الأحسن من غير حاجة إلى ممارسة العنف، لا سيما وقد خرج الأفراد من كثير من صور الاستضعاف، والتضليل، والارهاب التي وقع فيها أسلافهم على يدي أصحاب النفوذ، وذلك إلى حيث صاروا أكثر إدراكا لمصلحتهم الحقيقية، وأكثر إستعدادا للتجاوب مع دعوة الحق..

هذه التحولات الكبيرة تلقي على الدعاة الاسلاميين واجبا تنا جديدة، تمام الجدة!! وهي أن يقدموا الدعوة في صورة مقنعة ومؤثرة.. وذلك بأن يطبقوا ما يدعون إليه على أنفسهم قبل مباشرتهم هذه الدعوة حتى تكون دعوتهم بلسان الحال، وهو

الأخلاق، سابقة للسمات المقال، وذلك نورعاً من ذكر هذه الآيـة:
« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟؟ ۞ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون !!».. ولذلك فقد آن الاوان أن يرتفع أسلوب الدعوة الاسلامية من الجهاد للآخرين بالسيف، الذى اقتضاه حكم الوقت الماضى، إلى مستوى جهاد النفس.. وهذا ماسماه النبى بالجهاد الأكبر، وبفضل هذا الجهاد نرتفع إلى مستوى الإقناع، والإسماح، والسلام، الذى تقوم عليه آيات أصول القرآن..

مفهوم الجهاد عند الاخوان المسلمين :

وفى هذا الوقت الذى تهيأت فيه البشرية للتبشير بالاسلام فى مستواه العلمى القائم على الإقناع، والاسماح، والسلام، حيث اتجه الرأى العالمى الى نبذ العنف، ولم تعد الحرب لتحل مشكلة من المشاكل، يجئ تنظيم الاخوان المسلمين ليدعوا المسلمين إلى الجهاد !! فها هـو الشيخ حسن البنا، مؤسس الدعوة، يفرد رسالة خاصة بالجهاد، أسماها ((رسالة الجهاد)) أورد فيها العديد من النصوص التى تحض على الجهاد، داعياً إلى إتخاذه أساساً لأسلوب الدعوة الاسلامية اليوم، وقد وجه فى خاتمة هذه الرسالة هذه الدعوة إلى الاخوان المسلمين :

((أيها الإخوان : ان الأمة التى تحسن صناعة الموت وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة يهب لها الله الحياة العزيزة فى الدنيا، والنعيم الخالد فى الآخرة، وما الوهن الذى أذلنا إلا حب الدنيا، وكراهية الموت، فأعدوا أنفسكم لعمل عظيم واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة))

صفحة ٦ . مجموعة رسائل حسن البنا ..

والشيخ البنا كثير الحديث عن « صناعة الموت » .. فقد كتب عام ١٩٣٤ (مقالاً عن الجهاد أسماه « صناعة الموت » ، وفى أوج نشاط الجهاز السرى وقوته أعاد البنا نشر نفس المقال بعد أن غير العنوان ليصبح أكثر غرابة « فن الموت ») ص ١٣٢ من كتاب « حسن البنا متى .. وكيف .. ولماذا ؟ » للدكتور رفعت السعيد - أخذاً عن جريدة « الاخوان المسلمين » عدد ١٦/٨/١٩٤٦ .

هكذا يدعو الشيخ حسن البنا إلى إتقان « صناعة الموت » أو « فن الموت » فى هذا العصر الذى يوجب علينا الاسلام أن نتعلم « فن السلام » ، وأن نعلمه البشرية التى قضت تاريخها كله محاربة حتى لم تعد الحرب لتحل مشكلة واحدة من مشاكلها ، وحتى صارت حاجتها إلى السلام هى حاجة حياة أو موت ..

لقد لَبَّسَتْ على الدعاة الاسلاميين ، كالشيخ حسن البنا ، امر الجهاد تلك النصوص الصريحة المستفيضة فى القرآن ، والحديث الشريف التى تحض عليه .. فخفيت عليهم حكمته ، واتسامه بسمة الموقوتية .. وفى ، أصل الدين ، الذى لم تكن الظروف التاريخية ، يومئذ ، ملائمة للتشريع فى مستواه ، كما أسلفنا .. فإن الحياة فى سبيل الله أولى بالانسان من الموت فى سبيل الله .. الحياة فى سبيل الله تقتضى مجاهدة النفس ، التى أسماها النبى الكريم الجهاد الأكبر ، فى مقابل جهاد الاعداء الخارجيين - الجهاد الأصغر - ذلك بأن أعدى الأعداء ، بالنسبة لكل منا ، إنما هو نفسه - قال النبى الكريم : « إن أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك » حتى لقد ذهب بعض العارفين يؤول قوله تعالى « يا ايها الذين

آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة، واعلموا أن الله مع المتقين..» يأت من يلوننا من الكفار، وهم أقربهم إلينا، إنما هم نفوسنا.. فالكفار في خارجنا إنما هم آيات آفاق، ويقابلهم الكفار في داخلنا - وهم نفوسنا.. «سنريهم آياتنا في الآفاق، وفي أنفسهم، حتى يتبين لهم أنه الحق!! أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد؟؟»

هذا، والحياة في سبيل الله أصعب، وبما لا يقاس، من الموت في سبيل الله. ذلك بأن الحياة في سبيل الله تقتضي التطور، في مضمار النفس، من النفس الحيوانية إلى النفس الانسانية.. بترويض النفس، واستئناسها، وكبح جماح أهوائها، ومراغمة بدواتها.. وهو عمل تربوي جد عسير، وجد طويل.. فدعوة الشيخ حسن البنا إلى اتقان «صناعة الموت» إنما هي تنكب عن أصل الدين، في وقت إستعد فيه الفرد البشري، والمجتمع البشري، لأن يُشرّع له في مستوى هذا الأصل الذي لم يَتنزّلْ عنه التشريع، إلى الفرع، في الماضي، إلا بسبب حكم الوقت.. فالدعوة إلى الحرص على الموت، كما جاء على لسان الشيخ حسن البنا: «واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة»، في هذا العصر، إنما هي دعوة إلى النصول عن الواجب الديني المباشر، وهو تسليك النفس، وفق المنهاج النبوي في العبادة، وفي العادة، وما تقتضيه من مجاهدة جادة، وطويلة.. ويلبس هذا النصول عن هذا الواجب بطلب الاستشهاد!! مع أن طلب الاستشهاد، مع غياب حكم الوقت الذي يقتضيه، إنما هو استجابة لحظ من حظوظ النفس، وهو من أهوائها، هو اصطناع البطولة، وتصيد السمعة..

ومع أن مفهوم الجهاد، عند الأخوان المسلمين، مستمد، أساساً من مؤسس الدعوة، الشيخ حسن البنا، إلا أن كتابات الأستاذ سيد قطب هي التي بلورت هذا المفهوم، وركزت عليه، أشد التركيز.. قال في كتابه «معالم في الطريق»: «إن الجهاد ضرورة للدعوة إذا كانت أهدافها هي إعلان تحرير الانسان إعلاناً جاداً يواجه الواقع العملي بوسائل مكافئة له في كل جوانبه، ولا يكتفي بالبيان الفلسفي النظري!! سواء كان الوطن الاسلامي - وبالتعبير الاسلامي الصحيح: دار الإسلام - آمناً أم مهدداً من جيرانه»!!

هذا ما قاله الاستاذ سيد قطب.. وهي قولة تحتاج إلى قدر كبير من المراجعة.. فتحرير الإنسان في هذا العصر لا يتم عن طريق الجهاد، وإنما يتم عن طريق تقديم الاسلام كعلم نفس، يحرر الانسان من الجهل بحقيقة الوجود، ومن الخوف الموروث، والمكتسب، نتيجة لذلك الجهل.. أكثر من ذلك!! فإن الجهاد كأسلوب للدعوة الاسلامية، في هذا العصر، إنما هو معوق، أشد التعويق، لتحرير الانسان - الذي أخذ يشب عن طوق الوصاية في شتى صورها..

وما هو «الواقع العملي» الذي يعنيه الأستاذ سيد قطب، وهو يتحدث عن الجهاد كأسلوب للدعوة، «يواجه الواقع العملي بوسائل مكافئة له في كل جوانبه»؟؟ أليس هو الواقع العملي للحياة المعاصرة الذي لم تعد فيه الحرب بقادرة على حل المشاكل، وأصبح قصاراها أن تسوق المتحاربين إلى تربيزة المفاوضات لحل مشاكلهم بالتفاوض؟؟ أليس هو الواقع العملي للحياة المعاصرة الذي تطورت فيه أسلحة الحرب تطوراً جعل الجهاد «عملياً» غير ممكن،

الى جانب أنه دينياً غير مطلوب ؟!

وسيد قطب، وهو يرى أن الجهاد ضرورة لا تنفك الدعوة لتحرير الانسان، فى هذا العصر، انما يلتقى تماماً، ومن غير وعى منه، مع الماركسيين، الذين يرون أن العنف، والقوة، شرطان ضروريات لإحداث أى تغيير اجتماعى أساسى!! هو يلتقى بهم هذا الالتقاء فى أمر العنف وذلك بعد أن خلفت البشرية عهد التغيير بالعنف، وأخذت تستقبل عهد التغيير الفكرى.. أو «الثورة الفكرية»)..

والاستاذ سيد قطب اذ يرى أن الجهاد «ضرورة» للدعوة الإسلامية، لاينفك عنها، على الإطلاق، كأنه يرى أن ليست ثمة صورة يقدم فيها الاسلام إلى البشرية المعاصرة سوى صورة الوصاية.. وها هو الشيخ البنا يقرر ذلك بصورة مباشرة فيقول، بعد أن أورد نصاً من نصوص الجهاد: «ومعنى هذا أن القرآن الكريم يقيم المسلمين أوصياء على البشرية القاصرة، ويعطيهم حق الهيمنة والسيادة على الدنيا لخدمة هذه الوصاية النبيلة.. وإذن فذلك شأننا لا من شأن الغرب، ولمدنية السلام لا لمدنية المادة» - مجموعة رسائل حسن البنا - ص ٢٧ - هذا ما قاله الشيخ حسن البنا، وهو لا يرى للدعوة الإسلامية من صورة، إلا صورة الوصاية.. أكثر من ذلك!! فإنه يرى أن المسلمين أولى بأن يكونوا أوصياء على البشرية المعاصرة من الغرب!! مفترضاً أن هذه البشرية قاصرة!! مفترضاً أنها ستذعن لوصاية المسلمين، بعد أن تتحرر من وصاية الغرب!! فهل يمكن أن يقبل الانسان المعاصر، بذكائه، وتفتحه، على دعوة تعلن هذا الرأى الغريب عنه ؟!

ثم يتحدث الشيخ البنا عن « مدنية الإسلام » و« مدنية المادة » ، وهو يخلط بين المدنية والحضارة خلطاً واضحاً .. فإن ما عليه الغرب اليوم من تقدم مادى إنما هو حضارة وليس مدنية .. فالحضارة هى هذا الارتفاق بوسائل الحياة الحديثة التى أنتجها العلم الحديث ، والتكنولوجيا ، بينما المدنية هى الالتزام الأخلاقى الذى ينم عن حرية الفرد الداخلية .. ولذلك فإن عبارة الشيخ البنا : « مدنية المادة » عبارة تحتاج إلى قدر كبير من المراجعة ..

ومفهوم الجهاد عند الأخوان المسلمين لا يقف عند حد الحرب لنشر الدعوة الإسلامية ، وإنما هو عبارة عن عملية تحطيم شاملة !! فقد قال الأستاذ سيد قطب : « وكما أسلفنا فإن الانطلاق بالمذهب الإلهى تقوم فى وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة ، ونظام المجتمع ، وأوضاع البيئة ، وهذه كلها هى التى ينطلق الإسلام لتحطيمها بالقوة !! »

وأعمال العنف التى يسميها الأخوان المسلمون جهاداً فى سبيل الله ، ويسمون الموت فيها استشهاداً ، إنما هى موجهة أساساً للمسلمين !! هذا فى حين أن الأمر للنبى الكريم بالقتال إنما هو بعصم دماء ، وأموال ، الناس إذا ما شهدوا الشهادة ، وأقاموا أركان الإسلام الأخرى .. حتى ولو كانوا بذلك منافقين !! كما قرر الإسلام ، بصورة لا لبس فيها ولا غموض ، أنه : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء !! » وقد نهى النبى الكريم ، نهياً قاطعاً ، عن قتال أى فرد يشهد الشهادة ، حتى ولو كان إنما يشهدها تقية منه للقتل !! روى أن أحد الأصحاب قال : « يا رسول الله أرأيت لو أن

مشركاً قاتلني، فضرب يدي، فقطعها، ثم لاذ بشجرة، وقال: «أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله..» أأقتله؟؟ قال: لا!! قال: ولكنه إنما قالها ليحمي نفسه مني!! فقال: لا تقتله!! فإنك إن تقتله تكن في مكانه قبل أن يقولها، ويكن في مكانك قبل أن تقتله!!»... وقال النبي الكريم: «إنه يستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع!! قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟؟ قال: لا!! ما أقاموا فيكم الصلاة!!» ومن هنا تبرز مفارقة الأخوان المسلمين التامة لأحكام الجهاد.. فالجهاد إنما كان موجهاً أساساً لغير المسلمين، ثم إنه كان لا يقوم على الغدر، وأسلوب الإغتيال الذي يمارسه الأخوان المسلمون اليوم.. وسنرى في الباب الثاني من هذا الكتاب: «الإخوان المسلمون في مجال الممارسة» كيف يمارس الاخوان المسلمون أسلوب الاغتيالات الفردية للمسلمين، وكيف اشتركوا في تخطيط، وتنفيذ الغزو الأجنبي، والمؤامرات الدموية التي راح ضحيتها عشرات المسلمين!!

الأساليب التي تغذي روح العنف عند الاخوان المسلمين

وهكذا يلتقي الاخوان المسلمون، من حيث لا يشعرون، في ضرورة أسلوب العنف لإحداث اي تغيير أساسي في المجتمع، مع الماركسية التي يعادونها بغير وعي.. وقد ظل العنف هو السمة الملازمة لسلوك الأخوان المسلمين، كتنظيم، وكأفراد، منذ أن نشأت حركتهم في مصر، في حوالي عام ١٩٢٨.. ويرجع ذلك إلى عدة أسباب، منها ضعف التوحيد عند أساتذتهم، مما جعل دعوتهم تقوم على فهم

خالص للجهاد، كما رأينا، ومنها غياب المذهبية الفكرية المحددة، ومنها إغفال أساليب التربية، والتسليك الدينى، والاستعاضة عن كل أولئك بالحماس العقيدى..

ثم إن هناك عدة روافد غذت هذا الإتجاه إلى العنف عند الأخوان المسلمين.. منها، مثلاً، أن أغلبية الذين ينتمون إلى تنظيمهم من الطلاب، ومن الشباب، ممن يعيشون فى مرحلة المراهقة، أو ممن يتأثرون بآثارها، وهم، بذلك، إنما يميلون إلى الإندفاع، والحماس، ويملكون من الطاقات الجسدية، والعاطفية، مالا تجد، عند تنظيم الاخوان المسلمين، المنهاج التربوى الذى يستوعبها، ويهذبها، ويحد من إندفاعاتها.. بل، على العكس من ذلك تماماً، فهى لا تجد عند هذا التنظيم إلا الإثارة التى تغذيها، وتلهبها، وتبرر إتجاهها إلى الحماس الطائش!! أضف إلى ذلك الملابسات التاريخية التى نمت عند هذا التنظيم روح العنف، ولبسته عليه بمفهوم الجهاد فى البعث الإسلامى الأول.. تلك الملابسات التى صحبت نشأة هذا التنظيم فى مصر: من المشاركة فى بعض الأعمال العسكرية فى حرب فلسطين، وحرب السويس.. ومن الصراع العنيف الذى دار بينهم وبين الحكومات المختلفة فى مصر، وما تعرضوا له من إضطهاد وتصفية، وما قاموا به من محاولات للوصول إلى السلطة عن طريق القوة، ومن محاولات لارهاب، أو اغتيال، خصومهم السياسيين..

ومن العوامل التى تغذى إتجاهات العنف عند الاخوان المسلمين أساليب التعبير.. فهى أقرب إلى الأحاديث الانشائية الأدبية منها إلى التعبير العلمى الذى تصحبه الضوابط الفكرية.. فهم شديدو الاهتمام

بالخطابة، وبالشعر الحماسي، مما يخدم من الفكر الموضوعي، ويذكي الاندفاعات، والإنفعالات العاطفية.. كما ظل الأخوان المسلمون، دائماً، شديدي الاهتمام بضروب التدريبات العسكرية والرياضة البدنية، التي تعدهم لأعمال العنف.. وهم إنما يتخذون من أشكال التنظيم مايتمشى مع روح العسكرية، عندهم، فيقسمون أنفسهم إلى وحدات، مثل: «الأسرة»، و: «الكتيبة».. بل إن لهم فرقاً عسكرية بحتة مثل: «فرق الجوالة»، و: «الكتائب»، ولهم تنظيمات فدائية معدة بالسلاح، وبالتدريب على إستعماله، كما أن لهم تنظيماً سرياً كان يسمى عندهم في مصر «بالنظام الخاص» حيث كانوا يتخذون من الأناشيد الحماسية مايغذي فيهم روح العنف، مثل هذه الأبيات من نشيد «الكتائب» - كما جاء في مجموعة رسائل حسن البنا :

هو الحق يحشد أجناده ويعتد للموقف الفاصل
فصفوا «الكتائب» آساده ودكوا به دولة الباطل
تآخت على الله أرواحنا إخاء يروع بناء الزمن
وباتت فدى الحق آجالنا بتوجيه «مرشدنا» المؤتمن
أخا الكفر إما تبعت الهداة فأصبحت فينا الأخ المفتدى
وإما جهلت فنحن الكماة نقاضي إلى الروع من هددا
إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ولن تنجدا !!

والاخوان المسلمون يعتبرون أنفسهم «جنوداً» للدعوة، ويسمون دعوتهم غيرهم للانضمام اليهم «تجنيداً».. وهكذا فإن

بمفهوم الدعوة العقيدى البحت، وأشكال التنظيم فيها، والظروف التاريخية التى مرت بها، وأسلوب التعبير، والاصطلاح، إنما هى، جميعاً، تغذى ذلك الاتجاه إلى العنف، والإرهاب، وتنميه.. كما يربط الإخوان المسلمون اتجاه العنف عندهم بتصور خاطئ للبطولة، مما يزيد إغراء المراهقين بهذا الاتجاه.. وحسب « البيعة »، وهى قسم الولاء الذى يؤديه الأخوان المسلمون، يصبح الجهاد فى سبيل الله هو الجهاد فى سبيل دعوتهم!! وقد أورد الدكتور رفعت السعيد، نص البيعة، كما يلى: « أعاهد الله العلى العظيم على التمسك بدعوة الإخوان المسلمين والجهاد فى سبيلها والقيام بشرائط عضويتها والثقة التامة بقيادتها، والسمع والطاعة فى المنشط والمكره، وأقسم بالله العظيم على ذلك، وأبايع عليه.. والله على ما أقول وكيل » ص ٥٢ من كتاب « حسن البنا متى.. كيف.. ولماذا ؟ ».. ويزيد من خطر هذه البيعة أنها - كما هو واضح من نصها - إنما هى بيعة بالولاء لتنظيم الأخوان المسلمين، وليس للإسلام.. وهى بيعة غير مشروطة !! فهى لا تنص صراحة على اشتراط ألا تحيد دعوة الأخوان المسلمين عن مبادئ الإسلام، وذلك مما يجعل المبايع ملتزماً بحرفية هذه البيعة، وإن حادت الدعوة عن مبادئ الاسلام، ومما يجعله مطيعاً لقائده وإن كانت أوامر، وتوجيهات هذا القائد مفارقة للدين .. وهذا ما حدث بالفعل كما سنرى فى هذا الكتاب ...

هذا مع أن البيعة فى العهد الأول إنما كانت تقوم على الطاعة

فى المعروف، وليست على الطاعة المطلقة: ((يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينك فى معروف، فبايعهن، واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم)).. تأمل!! ((ولا يعصينك فى معروف!!)) هذا حديث يساق للنبى نفسه!! ولقد سار على هذه البيعة أبو بكر حينما ولى أمر المسلمين، فقال: ((لقد وليت عليكم، ولست بخيركم. فإن رأيتمونى على حق فأعينونى، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى!! أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم)) !!

هذه هى شروط البيعة فى الإسلام.. إلتزام من جانبى البيعة على طاعة الله..

وشعار مجلة ((الدعوة)) التى تصدر الآن، بمصر، إنما يعبر، تماماً، عن روح العنف التى يقوم عليها تنظيم الاخوان المسلمين، ويغذيها، وينميها بين أعضائه. فهو عبارة عن صورة ((حمراء)) للمصحف فوق سيفين مشرعين، تحتها عبارة ((وأعدوا)) وهى مأخوذة من آية من آيات الجهاد هى ((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)).. وهو استخدام خاطئ للآية الكريمة.. إذ هو استغلال للجهاد، بعد إنصرام حكم وقته، فى الاغراض السياسية.. بينما نزلت الآية تحض على الإعداد للجهاد

حينما كان للجهاد حكم الوقت، وحيث استخدم أحسن الاستخدام في سبيل نشر الاسلام..

الفصل الرابع

الاخوان المسلمون والديمقراطية

ليس في الشريعة ديمقراطية !!

ليس في الشريعة الاسلامية، الموروثة، ديمقراطية، لأن البشرية في القرن السابع الميلادي لم تكن مستعدة للحكم الديمقراطي، وإنما كان الحكم الإسلامي، يومئذ، هو حكم الشورى، وهو حكم الفرد الرشيد الوصي على قومٍ قُصّر، والذي قد أمر أن يستشيرهم ليشعرهم بكرامتهم الإنسانية، وليعطيهم فرصة في مباشرة شئونهم حتى يتعلموا، تحت توجيهه، كيف يحسنون التصرف فيها، وليتأهلوا لمرحلة الحكم الديمقراطي، حينما يخرجون من القصور الى الرشد!! والشورى ليست ديمقراطية، لأن الوصي ليس ملزماً باتباع رأي القاصر، اذا رأى رأياً يخالفه.. فالشورى مشاورة تملك حق المخالفة، وما هكذا الديمقراطية، فإن الحكم الديمقراطي يقتضي الالتزام برأي الأغلبية.. وآية الشورى هي: «فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً، غليظ القلب، لانفضوا من حولك، فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين..» ـ وقد نزلت آية الشورى هذه ناسخة لآيتي الديمقراطية حينما أديل مستوى التنزيل من المسئولية على الوصاية.. وآيتا الديمقراطية هما: «فذكر!!

إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر !!» .. أما اليوم، وقد تهيأت البشرية للحكم الديمقراطي ، فقد أتى أن يتطور التشريع من مستوى الشورى إلى مستوى الديمقراطية ، بعد أن خدم حكم الشورى غرضه - خدمه حتى إستنفده - ولقد كان أمثل أنظمة الحكم في عهده ..

إن جوهر الديمقراطية لهو المسئولية الفردية في ممارسة حق الخطأ .. ولقد كان النبي الكريم ، وحده ، في الماضي ، هو المسئول مسئولية فردية ، فيما يأتي ، وما يدع ، أمام الله تعالى ، بينما كانت سائر الناس على درجة من القصور استوجبت وصاية النبي الكريم عليهم - ولذلك فليس في الشريعة ، (مستوى عمل الأمة) ، ديمقراطية، وإنما نلتمس الديمقراطية في السُنّة (مستوى عمل النبي) ..

الإخوان المسلمون يدعون إلى حكم الوصاية في عهـــد الديمقـــراطيـــة :

يقول الاستاذ سيد قطب ((كذلك لم أستسغ حديث من يتحدثون عن (إشتراكية الإسلام) و (ديمقراطية الإسلام))) ((العدالة الاجتماعية في الإسلام - صفحة ٩٧)) ..

فسيد قطب ، بذلك ، إنما يرفض أن يكون الإسلام إشتراكياً ، وديمقراطياً !! في هذا العصر الذي أصبحت فيه الإشتراكية ، والديمقراطية جماع تطلعات الشعوب ، وجماع حاجاتها .. حتى صارت سائر الفلسفات ، وسائر الأنظمة في العالم اليوم إنما تدعيهما ، حتى ولو كان بعضها لا يعنيهما ، وقد عجزت جميعها عن تحقيقهما .. وبذلك يجرد الأخوان المسلمون الإسلام من أخص خصائصه التي ترشحه لحل أزمـــة

« التنظيم الاجتماعي » التي تواجهها البشرية المعاصرة وهو العجز عن الجمع بين الاشتراكية والديمقراطية في جهاز حكومي واحد — وذلك حيث عجزت عن ذلك الفلسفات الاجتماعيات، جميعاً.. فكأن سيد قطب حينما لم « يستسغ » أن يكون الإسلام ديمقراطياً واشتراكيا، أراد أن يُنزِّه الاسلام عن نقص يلحقه به بعض المسلمين!! ولعل في ذهنه تلك الصورة الشائهة للديمقراطية، والاشتراكية، التي أخذها عن التطبيق الخاطئ لهما في العالم اليوم.. قد دفعته هذه الصورة الشائهة لرفض الديمقراطية والإشتراكية في جوهرهما!! وليست الاشتراكية هي الماركسية.. وإنما الماركسية مدرسة من المدارس الإشتراكية، سيئاتها أكبر من حسناتها.. وليست الديمقراطية هي ممارسات المعسكر الغربي في نظام الحكم، فهذه ممارسات سيئاتها أكبر من حسناتها.. وانما يأتي الاسلام ليصحح تلك الممارسات، وليحقق الديمقراطية الصحيحة، والاشتراكية الصحيحة.. فإن الاسلام، في أصوله، إنما هو أولى بهما من غيره، فما ينبغي أن ننسب إليهما تزييف المزيفين لتجرد الإسلام منهما، وهما من أكبر فضائله..

ولا يرى سيد قطب إلا أن تقوم سياسة الحكم في الإسلام على أساس: « العدل من الحكام، والطاعة من المحكومين، والشورى بين الحاكم والمحكوم » صفحة ١٠١ المصدر السابق — فهو لا يرى نظاماً للحكم في الإسلام سوى الشورى.. وهو نظام الوصاية الذي إقتضاه حكم الوقت المتمثل في قصور الناس في الماضي.. فليس هناك « اليوم » رجل هو من الكمال بحيث يؤتمن على حريات الآخرين فيقام

عليهم وصياً ، وإنما صار ضمن الحرية الفردية هو دوام سهر كل فرد عليها ، وارتفاعه إلى مستوى حسن التصرف فيها .. وذلك إنما هو مراد الدين بالأصالة حيث نهى الله تعالى نبيه ، وهو على ما هو عليه من كمال الأخلاق ، والترفع عن السيطرة على الآخرين - نهاه بقوله : « فذكر إنما أنت مذكر ● لست عليهم بمسيطر » !!

وكذلك يرى الشيخ حسن البنا صلاحية نظام الشورى لهذا العصر فيقول بالنسبة للحاكم والأمة : « وعليه أن يشاورها وأن يحترم إرادتها ، وأن يأخذ الصالح من آرائها » !! - مجموعة رسائل حسن البنا صفحة ٣٦١ - فهي دعوة للوصاية في غير وقتها ، ذلك بأن الشعوب قد تهيأت لها أسباب الاستنارة ، وأسباب الأمن ، بدرجة أبرزت شخصيتها ونضجها مما يتقاضى الحاكم « أن يحترم إرادتها » المتمثلة في إرادة أغلبية مجموعها ، وأن يأخذ برأي هذه الأغلبية .. فلا يعطي نفسه الحق في تقدير ما هو صالح من آرائها ، وما هو طالح ، للأخذ بالأول واطراح الثاني .. وإنما تريد الشعوب ، اليوم ، أن ترى إرادتها نافذة ، وأن يكون الحكام تجسيداً لهذه الإرادة ، وتنفيذاً لها .. وهذا ، كما أسلفنا ، مراد الدين بهذه الشعوب بالأصالة ..

فالاخوان المسلمون ، بذلك ، إنما لا يرون مرحلية الوصاية في حكم (الشورى) التي استوجبها حكم الوقت في الماضي - حكم الوقت المتمثل في قصور الناس عن ممارسة حقوقهم الديمقراطية في المسئولية الفردية ، والحرية الفردية .. ولذلك يتحدث الشيخ البنا عن « الشورى » كصورة واحدة لنظام الحكم ، في الاسلام ، في كل العصور ..

قال العشماوى، عضو مكتب الارشاد لجماعة الأخوان المسلمين:

« عند أول عهدى بعضوية مكتب الارشاد ثار البحث: هل الشورى في الإسلام ملزمة أم غير ملزمة ؟؟ أى هل يتقيد فضيلة المرشد العام برأى مكتب الإرشاد أو يخالفه إذا شاء ؟؟ وكان رأى الامام الشهيد أن الشورى ليست ملزمة، وللمرشد أن يأخذ برأى المكتب، ويجوز له أن يخالفه » - كتاب « حسن البنا.. متى. كيف.. ولماذا ؟ » للدكتور رفعت السعيد - ص ٥١ - نقلاً عن مجلة الدعوة عدد ١٢/٢/١٩٥٢.

صحيح أن المرشد الدينى، صاحب الدعوة الدينية، الذى يدعو الناس إلى الدين، فيلتف حوله الأتباع، إنما هو، فى أى زمان، وفى أى مكان، فى وضع الوصى الرشيد على أتباعه.. ذلك بأنه مصدر التلقى، والفتوى، فى أمر ترشيدهم، وتسليكهم، فلا يعقل أن يكون مُلزمًا بالأخذ برأى تلاميذه، واطراح رأيه، فى مسألة تتعلق بهذا الترشيد والتسليك.. ولمّا كان هذا الوقت هو وقت الحكم الديمقراطى، وليس هو وقت الشورى فى الحكم، فإن دَأبَ المرشد الدينى، اليوم، هو أن يبلّغ أتباعه، عن طريق الترشيد، والتسليك، والتربية، مبلغ النضج، والرشد، الذى يؤهلهم لممارسة حقوقهم الديمقراطية فى الحكم كاملة، فيرفع عنهم جميع صور الوصاية المرحلية عليهم.. حتى أنه ليخرج نفسه تمامًا من بينهم وبين ممارسة الحكم الديمقراطى الكامل كلما وسعهم ذلك.. غير أن الاخوان المسلمين لا يرون هذه المرحلية للوصاية، وإنما هم يسحبونها على نظام الحكم، فى هذا الوقت، الذى إستأهلت فيه الشعوب نظام الحكم الديمقراطى.. ومن ثم يتورط الاخوان

المسلمون فى التخليط بين الوصاية فى أمر الإرشاد الدينى، والوصاية فى أمر الحكم.. كما يتضح من أقوال الشيخ البنا..

أكثر من ذلك !! فإنهم إنما يتورطون فى التخليط بين أحكام الشريعة الإسلامية والأنظمة الحديثة للحكم، من غير أن يقدموا فكرة محددة لسياسة الحكم.. قال الشيخ البنا: ((بهذا الاعتبار يمكن أيضاً أن نقول فى اطمئنان أن القواعد الأساسية التى قام عليها الدستور المصرى لا تتنافى مع قواعد الاسلام، وليست بعيدة عن الاسلام، ولا غريبة عنه.)) مجموعة رسائل حسن البنا صفحة ٣٦٦. هذا ما قاله الشيخ البنا وهو يحاول التوفيق بين أحكام الشريعة الاسلامية ((والقواعد الأساسية التى قام عليها الدستور المصرى)) وهو يعنى، هنا، دستور عام ١٩٢٣.

أما بالنسبة للقواعد الأساسية لذلك الدستور، ونحن نفترض هنا أن الشيخ البنا يعنى بالقواعد الأساسية الحقوق الأساسية التى نص عليها ذلك الدستور، فقد جاء فى المادة الثالثة منه: ((المصريون لدى القانون سواء، وهم متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين)).. ونصت المادة ١٢ من ذلك الدستور على: ((حرية الاعتقاد مطلقة)).. ونصت المادة ١٣ على: ((تحمى الدولة حرية القيام بشعائر الأديان والعقائد طبقاً للعادات المرعية فى الديار المصرية على ألا يخل ذلك بالنظام العام ولا ينافى الآداب)).. وتنص المادة ١٤: ((حرية الرأى مكفولة، ولكل إنسان الاعراب

عن فكره بالقول أو الكتابة أو بالتصوير أو بغير ذلك فى حدود القانون)).. وتنص المادة ١٥ : ((الصحافة حرة فى حدود القانون. والرقابة على الصحف محظورة وإنذار الصحف أو وقفها أو إلغاؤها بالطريق الإدارى محظور كذلك إلا إذا كان ذلك ضرورياً لوقاية النظام الاجتماعى))..
وتنص المادة ٢٠ : ((للمصريين حق الاجتماع فى هدوء وسكينة غير حاملين سلاحاً..)).. وتنص المادة ٢١ : ((للمصريين حق تكوين الجمعيات، وكيفية استعمال هذا الحق يبينها القانون))..

إذا كان الشيخ البنا يعنى ((بالقواعد الأساسية)) للدستور المصرى هذه الحقوق الأساسية : ((المساواة أمام القانون، حرية الاعتقاد، وحرية الرأى، وحق الاجتماع، وحق تكوين الجمعيات الخ..)) ويعنى ((بقواعد الإسلام)) أحكام الشريعة الإسلامية الموروثة.. فليس فى هذه الشريعة حقوق أساسية، لأنها قامت، كما أسلفنا فى مقدمة هذا الكتاب، على الوصاية، بل إن آياتها قد نزلت ناسخة لآيات الحقوق الأساسية، ومن ثم فليس فى هذه الشريعة دستور.. وإنما الحقوق الأساسية (الدستور) فى أصول القرآن الكريم التى نسختها فروع القرآن (الشريعة الموروثة).
ثم إنه لا عبرة بالحقوق الأساسية التى نص عليها دستور ١٩٢٣ المصرى، فهى قد كانت حبراً على ورق.. وتمويهاً للديمقراطية، وتضليلاً للشعب المصرى.. فالمادة الأولى من ذلك الدستور تنص على: ((مصر دولة ذات سيادة، وهى حرة مستقلة ملكها لا يتجزأ ولا ينزل عن شئ منه وحكومتها ملكية وراثية وشكلها نيابى)).. والمادة

٣٣ من ذلك الدستور تقول: « الملك هو رئيس الدولة الأعلى وذاته مصونة لا تمس » !! ولا يمكن أن يكون الحكم ديمقراطياً ، ولا الحقوق الأساسية للمواطنين مرعية، في نظام ملكي مطلق، يتمتع فيه الملك ببقايا حق الملوك المقدس، إذ أن: « ذاته مصونه لا تمس »، وهو الحق الذي عطل حركة الشعوب نحو الحرية، وأخر مجئ الديمقراطية في العالم.. ثم إن ذلك الدستور ليتنافى، أشد التنافي، مع أحكام الشريعة الموروثة التي تقوم على الوصاية الرشيدة، وليس على الحكم المطلق الغاشم، أو « الملكية الوراثية ».. وأين الإقرار بأن ذات الملك « مصونة لا تمس » من قول أبي بكر غداة توليه الخلافة: « وإن رأيتموني على باطل فسددوني » ؟؟. إن دستور ١٩٢٣ المصري ليتنافى مع أصول القرآن، كما يتنافى مع الشريعة الاسلامية الموروثة.. وليس رأي الأخوان المسلمين عنه إلا من قبيل مخططاتهم السياسية لممالأة الحكام من أجل إحتواء السلطة.. وإلا فكيف يجوز لدعاة إسلاميين أن يخاطبوا الملوك بهذه العبارات: « إلى سُدّة صاحب الجلالة الملكية حامي الدين ونصير الاسلام والمسلمين مليك مصر المفدى » !! كما فعل الأخوان المسلمون - مذكرات الدعوة والداعية صفحة ١٥٦ ؟؟

هذا !! والدستور المصري لسنة ١٩٢٣ إنما كان يعتبر منحة من الملك للشعب.. جاء في كتاب (موجز القانون الدستوري) للدكتور عثمان خليل والدكتور سليمان الطماوي (الطبعة الثالثة ١٩٥١-٥٢) صفحة ٢٦٥ - ٢٦٦ ما:

(٢) الدستور المصري منحة : وذلك إستناداً إلى نصوص، وتصريحات رسمية مختلفة رافقت وضع الدستور، وأبدت صراحة، أوضمناً، فكرة المنحة هذه .. جاء في ديباجة الدستور : -

((نحن ملك مصر - بما أننا ما زلنا منذ تبوأنا عرش أجدادنـا، وأخذنا على أنفسنا أن نحتفظ بالأمانة التي عهد الله بها إلينا، نتطلب الخير دائماً لأمتنا بكل ما في وسعنا، ونتوخى أن نسلك بها السبيل التي نعلم أنها تفضي إلى سعادتها وارتقائها وتمتعها بما يتمتع به الأمم الحرة المتمدينة. "

((ولما كان ذلك لا يتم على الوجه الصحيح إلا إذا كان لها نظام دستوري كأحدث الأنظمة الدستورية في العالم وأرقاها. "

" وبما أن تحقيق ذلك كان دائماً من أجل رغباتنا ومن أعظم ما تتجه إليه عزائمنا. "

((أمرنا بما هو آت ...))

كونت " لجنة الثلاثين " لوضع الدستور .. قال السيد يحي ابراهيم باشا في جلساتها : ((على أنه فيما يتعلق بمصر يجب لاجل تعيين السلطة التي تتولى وضع الدستور الرجوع إلى قانوننا العام، وقد جرى الأمر فيه على أن تصدر القوانين النظامية من ولي الأمر وحده.)) ..

ولعل في طريقة تكوين لجنة الثلاثين وفي كون الدستور قد ترك بعد هذه اللجنة بين يدي "اللجنة الحكومية" (وهي اللجنـة الاستشارية التشريعية) التي عدلت بعض أحكامه ما يؤيد فكرة المنحة التي نحن بصددها ..)

رأى الإخوان المسلمين فى حقوق غير المسلمين

أما فيما يتعلق بحقوق غير المسلمين فى الدولة التى تحكم بالشريعة الإسلامية الموروثة، والتى يدعو إليها الإخوان المسلمون فيقول الشيخ حسن البنا فى «مذكراته» - ص ١٨٤ :

« علم يصدر - الاسلام - دستوره المقدس الحكيم إلا وقد اشتمل على النص الصريح الواضح الذى لا يحتمل لبساً ولا غموضاً فى حماية الأقليات، وهل يريد الناس أصرح من هذا النص « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين» فهذا النص لم يشتمل على الحماية فقط، بل أوصى بالبر والإحسان إليهم ».. هكذا يعمد الأخوان المسلمون إلى التمويه الذى يبلغ مبلغ التزييف فيما يتعلق بحقوق أهل الكتاب فى الشريعة الاسلامية الموروثة التى يرون صلاحيتها وتطبيقها بكل صورها، على مجتمع القرن العشرين، بغير تطوير إلى أصول القرآن الكريم.. والشيخ حسن البنا يتحدث هنا عن « دستور » الإسلام.. وهو يعنى الشريعة الاسلامية الموروثة، كما قد بينا فى مقدمة هذا الكتاب.. وقد أشرنا فى هذا الفصل إلى أنه ليس فى هذه الشريعة ديمقراطية، وأنها قد قامت على الوصاية، ومن ثم فليس فيها دستور، وإنما الدستور فى أصول القرآن، وفى السنة النبوية، بل إن هذه الشريعة، حينما شرعت، فقد نسخت آياتها آيات الحقوق الأساسية، مثل : « وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر ».. والدستور هو القانون الأساسى، وهو إنما

سمى بالقانون الأساسى لأنه يدور ، كله ، حول مركزية الحقوق الأساسية .. ومع هذا التمويه الذى حاول الشيخ حسن البنا أن يسبغه على حقوق غير المسلمين فى الشريعة الاسلامية الموروثة ذهب ليصفهم « بالأقليات » .. مما يدل على ما يراه ، فى دخيلته ، من التمييز بينهم وبين المسلمين : « الأغلبية » !! وأورد الشيخ البنا آية يستدل بها على ما أسماه : « حماية الأقليات » ، وهو يجب أن يعنى أهل الكتاب ، فإن من سواهم من غير المسلمين إنما يعتبرون محاربين ، وموقف المسلمين منهم : إما الدخول فى الاسلام وإما القتال .. وما يسميه الشيخ البنا : « الحماية » ويستحسنه بالصورة التى ذكرناها عنه ، هو فى ، حد ذاته ، إهانة فى مفهوم حقوق المواطن فى الوقت الحاضر .

وفى الحقيقة إن حكم الآية التى أوردها الشيخ البنا منسوخ بآية الجزية : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .. قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية : (وهذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب ، بعد ما تمهدت أمور المشركين ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، واستقامت جزيرة العرب ، أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين ، اليهود والنصارى .. » وقال فى تفسير : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » : « أى إن لم يسلموا : « عن يد وهم صاغرون » أى عن قهر لهم وغلبة « وهم صاغرون » أى ذليلون حقيرون مهانون » .. فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء .. كما جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله

عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه». هنا ما قاله ابن كثير، وهو ما عليه الأمر في الشريعة.. فالشريعة قد كانت حكيمة، كل الحكمة، وعادلة كل العدل، في فرض الجزية على أهل الكتاب، وفي التضييق عليهم بتلك الصورة.. فقد أرادت، بكل أولئك، أن تحملهم على مصلحتهم بالإكراه، حتى يحفزهم التمييز ضدهم إلى الدخول في الإسلام فينتقلوا من حالة دفع الجزية، وهي حالة مهانة، إلى حالة دفع الزكاة، حيث وجدت، وهي حالة كرامة.. ذلك أن مال الزكاة عبادة، ومال الجزية عقوبة.. ثم إن أهل الكتاب حين يعيشون في المجتمع الإسلامي بهذه الصورة إنما يعيشون فترة انتقال يعرفون خلالها الإسلام مطبقاً ومعاشاً في حياة المسلمين، فتبرز لهم فضائله، وتتضح لهم أوجه صحته.. وهم أثناء ذلك ملتزمون بعقد الذمة على إعطاء الجزية للمسلمين، وعلى التزام أحكام الشريعة الإسلامية في المعاملات، والعقوبات، مقابل عدم قتلهم، وإقامتهم في دار الإسلام على دينهم، يمارسون شعائره، ويتزاوجون وفق شريعته.. هذا هو معنى «حماية الأقليات».. حمايتهم من القتل، وحمايتهم في ممارسة شعائر دينهم، ما أعطوا الجزية..

هذا هو وضع أهل الكتاب، اليهود والنصارى، في الشريعة الإسلامية الموروثة.. فعلى الدعاة الإسلاميين أن يبرزوه في إطاره التاريخي، الحقيقي، وأن يقدموا مبرراته المرحلية المقنعة.. ثم يجب أن يقدموا، اليوم، الإسلام في صورة دستور إنساني يقوم على أصول القرآن التي تقر الحقوق الأساسية للإنسانية، فلا تميز بين

المسلم ولا غير المسلم..

هذا غير للدعاة الإسلاميين من تزييف الشريعة لإتقاء معارضة المواطنين غير المسلمين، الذين يعيشون بينهم، وللظهور بمظهر التقدمية والعصرية الزائفة..

ويقول محمد قطب، وهو من كبار مفكري الأخوان المسلمين، في كتابه «شبهات حول الاسلام» الصفحة ٥٣ (ولقد كان هذا الكتاب مقرراً على طلبة المدارس الثانوية العليا في السودان): - «فمن أبى الاسلام وأراد أن يحتفظ بعقيدته في ظل النظام الإسلامي - مع ايمان الاسلام بأنه خير من هذه العقيدة وأقوم سبيلاً - فله ذلك دون إكراه ولا ضغط، على أن يدفع الجزية مقابل حماية الاسلام له، بحيث تسقط الجزية أو ترد إن عجز المسلمون عن حمايته»!! فهو يرى أن الجزية على غير المسلم في الشريعة إنما هي ثمن لحماية المسلمين له!! وهذا مما يتنافى مع حكمة الجزية التي بيناها، تماماً!! فالجزية إنما كانت تسقط عمن تعجز الدولة الاسلامية عن حمايته بسبب خروجه عن سلطانها إلى سلطان آخر بحيث لم يصبح من رعاياها.. ولا ترد الجزية عن أي فترة سابقة في هذه الحالة..

ومثل آخر لهذا الاتجاه إلى تمويه حقوق أهل الكتاب في الشريعة الاسلامية الموروثة هو ما ذهب إليه الدكتور حسن الترابي، زعيم الإخوان المسلمين في السودان في محاضرة له بجامعة الخرطوم في يوم ٧٧/١٢/٢٦ (قمنا بالتعليق عليها في كتابنا «الدكتور الترابي يخرج عن الشريعة باسم تحكيم الشريعة») وذلك حينما طوقه بعض الطلاب المسيحيين من الاقليم الجنوبي للسودان ببعض الأسئلة

حول حقوق غير المسلمين .. فقال: ((ليس هناك ما يمنع رجلاً في جنوب السودان أو في شرقه أو في شماله أن يكون رئيساً لجمهورية مسلمة، ليس هناك ما يمنعه، ليس الذي يمنعه كونه جنوبياً وإنما الذي يمنعه كون حزبه يخالف حزب الأغلبية، فإما أن ينضم إلى حزب الأغلبية أو أن يقنع الأغلبية بالانضمام إلى حزبه)) فالترابي يرى أن للمسيحي الحق في أن يكون رئيساً لدولة تحكم بالشريعة الإسلامية الموروثة!! ثم يستدرك فيشترط أن ينضم إلى حزب الأغلبية بأن يصير مسلماً!! أو أن يقنع حزب الأغلبية، وهم المسلمون، بالانضمام إلى حزبه، وهو المسيحية!! ثم ذهب ليفتي بجواز خروج المسلم عن الإسلام بقوله: ((وأود أن أقول إنه في إطار الدولة الواحدة، والعهد الواحد يجوز للمسلم كما يجوز للمسيحي أن يبدل دينه إذا لم يخرج على جماعة الأمة وعلى الدولة)) !! يفتي الدكتور الترابي بذلك من غير أن يقيم فتواه على سند من الكتاب الكريم، أو على سند من الحديث الشريف.. هذا مع أن الرسول الكريم يقول: ((من بدّل دينه فاقتلوه !!)) ويقول: ((لا يحل دم إمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، وقتل نفس بغير نفس !!)) ..

إن أولى بالدعاة الإسلاميين أن يعرفوا للشريعة الإسلامية الموروثة مرحليتها، والأغراض الجليلة التي خدمتها، ومقدرتها، وانفتاحها على التطور بدلاً من هذه المحاولات القاصرة لتمويهها، وتزييفها، وإلباسها غير لبوسها.. فليس هناك في هذه الشريعة ما يعيبها حتى تجري تلك المحاولات لتمويهها، وتعميتها، فقد كانت بمثابة القفزة بالنسبة لما ساد البشرية في ذلك الوقت من شرائع وأعراف.. وإنما

العيب هو فى محاولة نقلها إلى غير وقتها ، وإلى غير أمتها لتحل مشاكل جديدة ، كل الجدة عليها ، لا تتسع لها الا شريعة جديدة عمدتها آيات أصول القرآن ، وسنة النبى الكريم .. العيب فى العقول التى تتحدث عن الشريعة ، وليس العيب فى الشريعة !!

الفصل الخامس

الاخوان المسلمون والاشتراكية

ليس فى الشريعة اشتراكية !!

الحقوق الأساسية هى حق الحياة ، وحق الحرية .. ففى حين أن حق الحرية يتمثل فى الديمقراطية ، فإن حق الحياة يتمثل فى الاشتراكية .. والديمقراطية والاشتراكية صنوان ، لا انفصام لهما ، إذ لا يقوم المجتمع الصالح الا عليهما ، معاً ، وفى وقت واحد ..

والاشتراكية تعنى ، فيما تعنى ، أن يكون الناس شركاء فى خيرات الأرض على قاعدة الحقوق لكل الناس ، وليس على قاعدة الحق للبعض ، والصدقة للبعض الآخر .. والتعريف العلمى للاشتراكية أنها النظام الاقتصادى الذى تكون فيه وسائل الإنتاج ، ومصادر الإنتاج ، مملوكة للأمة ، محرمة الملكية على الفرد الواحد ، وعلى الشركات ، وذلك لتحقيق كفاية الانتاج ، وعدالة توزيع الدخول .. بينما التعريف العلمى للرأسمالية أنها النظام الاقتصادى الذى يملك وسائل الإنتاج ، ومصادره ، للفرد الواحد ، أو الشركات .. ولقد صارت الاشتراكية ممكنة اليوم نتيجة للصراع الطويل بين المستغِلين والمستغَلين ، ونتيجة لزيادة الانتاج باستخدام الآلة

بعد الثورة الصناعية فى أوربا ... وبذلك فإن النظام الاقتصادى فى الشريعة لم يكن إشتراكياً، وإنما هو صورة ملطفة للرأسمالية، إقتضتها الضرورة حينما لم يكن العهد عهد الاشتراكية.. وهو الزكاة ذات المقادير التى تبيح ملكية وسائل الانتاج للأفراد.. وآيتها: «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم، وتزكيهم بها، وصل عليهم، إن صلاتك سكن لهم..».. وهى آية من آيات فروع القرآن.. وقد نسخت آية الاشتراكية التى هى من آيات أصول القرآن: «ويسألونك ماذا ينفقون؟؟ قل العفو!!» وإنفاق العفو هو إنفاق ما زاد عن الحاجة الحاضرة.. وقد كانت آية إنفاق العفو فرضاً، ثم نسخت بآية الزكاة ذات المقادير.. هذا بينما لم يقع النسخ فى حق النبى الكريم الذى كانت سنته تقوم على أصول القرآن.. فقد كانت زكاته، وعلى طول المدى، هى إنفاق العفو.. ومن سنته أيضاً، عدم جواز مال الزكاة له ولا لآل بيته، وهو الذى قال: «الصدقة أوساخ الناس، وهى لا تجوز لمحمد، ولا لآل محمد..».. وهذا أبلغ دلالة على مرحلية تشريع الصدقات الذى إقتضته الضرورة.. واليوم فإن العهد هو عهد الإشتراكية، وهو عهد بعث السنة النبوية.. حيث يجب أن يقف جميع الناس عن أكل الصدقة، تأسياً بالسنة النبوية الكريمة.. ومن ثم فلا بد من تطوير التشريع، فى مجال الإقتصاد، من الزكاة الصغرى التى كانت عليها الأمة (الشريعة)، إلى الزكاة الكبرى التى كان عليها النبى الكريم (السنة).. غير أن الزكاة الكبرى - إنفاق العفو - إنما يتم تطبيقها الجماعى عن طريق الاجراءات الاشتراكية التى تحرم ملكية وسائل الإنتاج

على الأفراد، وتضع حداً أعلى، وحداً أدنى للدخول، لا يتفاوتان تفاوتاً يؤدى إلى الطبقية فى المجتمع، وعلى أن يكون الحد الأدنى كافياً لصيانة الكرامة البشرية، ومكفولاً لجميع العاجزين عن الانتاج.. والاسلام، وحده، دون الفلسفات والأديان، هو القادر على تحقيق هذه الاشتراكية، وذلك لأنه يجعل الرقيب على المنتج ضميره، ولأنه يجعله راضياً بذهاب الفائض من إنتاجه، عن حاجته للعاجزين عن الانتاج.. (فإنه لكى تتم الكفالة الاجتماعية بالاشتراكية لا بد أن يذهب الفائض من إنتاج و حاجة المنتجين لسد حاجة العاجزين عن الإنتاج، وذلك بما يتوفر عليه الإسلام من منهاج العبادة، والمعاملة، الذى تفتقر إليه الماركسية حينما قطعت صلتها بالغيب، وجعلت بذلك القيمة كلها للمادة، فى حين أن فى الاسلام القيمة على مستويين: مستوى مادى ومستوى روحى.. والرغبة فى القيمة الروحية مرجحة على الرغبة فى القيمة المادية.. هذا هو أساس التربية فى الاسلام..

النظام الاقتصادى عند الأخوان المسلمين

ولا يملك الاخوان المسلمون سوى أن يقدموا النظام الرأسمالى لحل المشكلات الاقتصادية المعاصرة !! يقول الشيخ حسن البنا، ((وتوجب علينا روح الاسلام فى تشريعه الاقتصادى أن نبادر بتنظيم الضرائب الاجتماعية وأولها ضريبة الزكاة..)) !! - مجموعة رسائل حسن البنا صفحة ٤٠٤ .. فنظام الاقتصاد الذى يراه الاخوان المسلمون، لحاضر هذه البشرية، ومستقبلها، هو

النظام الذى يبيح ملكية وسائل الإنتاج للأفراد، على أن تفرض عليهم «الضرائب الاجتماعية وأولها ضريبة الزكاة»!! هذا بينما الوقت قد جاء للناس بالسُنّة، فى أن يعفى الناس عن مال الصدقة، ليكون لكل مواطن، فى خيرات بلاده، حق مكفول بالقوانين التى تنظم الدخول.. فعبارة الشيخ حسن البنا عن أن «روح الاسلام» توجب علينا فرض الزكاة - وهو يعنى الزكاة ذات المقادير - إنما يفوزها التفريق الدقيق بين زكاة النبى الكريم (السنة)، وهى «روح الاسلام» وبين زكاة الأمة (الشريعة) وهى الطرف من (الاسلام) الذى تنزل الى حكم الوقت فى الماضى - ذلك بأن «روح الاسلام» إنما تلتمس فى عمل النبى الكريم لا فى عمل الأمة .. تلتمس فى أصول القرآن لا فى فروعه..

ويتحدث الشيخ حسن البنا عن أن الزكاة ضريبة ويعدها من «الضرائب الاجتماعية» التى تفرضها الحكومات «العلمانية» على مواطنيها بقوانين، مع أن الزكاة ركن تعبدى يعتبر مستطيعها الذى يمتنع عن إيتائها، فى الشريعة، مرتداً، وخارجاً على سلطان الدولة الإسلامية، ومن ثم كان يجب على خليفة المسلمين قتاله، وهكذا فعل أبو بكر الصديق فيما عرف فى التاريخ الإسلامى بحرب الردة.. ثم ان الضريبة اليوم إنما تفرض على المواطنين، بغير تمييز بينهم بسبب العقيدة.. بينما لا تفرض الزكاة، فى الشريعة، إلاّ على المسلمين، أما أهل الكتاب فعليهم الجزية..

وعلى أى حال فالدعوة الاسلامية الصحيحة اليوم انما يجب ان تكون الى «الاشتراكية» استلهاماً من السنة النبوية، حيث

تقتضى هذه السنة اليوم كفاية حاجة الفرد بحيث تحرم عليه ملكية وسائل الإنتاج ، وبحيث لا يفوق دخله الحد الأدنى من الدخول بأضعاف مضاعفة تؤدى إلى التمييز الطبقى .. وعلى هذا الأساس من العدالة الاجتماعية نخطط الدخول، بحيث لا يقوم النظام الضرائبى الذى يعتبر سمة من سمات النظام الرأسمالى .

الملكية الفردية ليست من الفطرة البشرية

والأخوات المسلمون إنما يعتبرون أن قاعدة النظام الاقتصادى فى الاسلام، فى الماضى والمستقبل، هى حق الملكية الفردية ـ وبالطبع فانهم لا يرون مرحلية تشريع الزكاة الذى كان يعطى حق الملكية الفردية لوسائل الانتاج ـ ولذلك فانهم يدافعون عن الملكية الفردية غير المحدودة ، وعن حق تنميتها بالسبل المشروعة.. فالأستاذ سيد قطب يقول : ((يقرر الإسلام حق الملكية الفردية للمال ـ بوسائل التملك المشروعة التى سيرد بيانها بعد قليل ـ ويجعلها قاعدة نظامه ، ويرتب على هذا التقرير نتائجه الطبيعية فى حفظ هذا الحق لصاحبه وصيانته له)) ثم يمضى حتى يقول : ((لا شبهة فى تقرير هذا الحق الواضح الصريح فى الاسلام، ولا شبهة كذلك فى أنه قاعدة الحياة الاسلامية وقاعدة الاقتصاد الاسلامى)) ـ كتاب ((العدالة الاجتماعية فى الاسلام ـ صفحة ١١١)) .. ويحدد الأستاذ سيد قطب عشرة من ميادين التملك الفردى ، ومنها ((ملكية السلب)) ـ على حد تعبيره ـ إذ يقول ((سابعاً ـ الغزو وينشأ عنه ملكية السلب وهو كل ما مع

القتيل المشرك الذى يقتله مسلم » صفحة ١٢٤ - والعيب ليس أن هذا مصدر من مصادر التملك فى ماضى التشريع، وإنما العيب هو الأسرى المفكرون الاسلاميون مرحلية الجهاد فتقوم دعوتهم عليه بمثل هذه الصورة فى هذا العصر !!

ويقوم الدفاع عن الملكية الفردية، عند الأخوان المسلمين، على اساس أن حب التملك غريزة، وأنه إنما يتمشى مع الفطرة .. وفى ذلك يقول الاستاذ سيد قطب: « وتقرير حق الملكية الفردية يحقق العدالة بين الجهد والجزاء، فوق مسايرته للفطرة، واتفاقه مع الميول الأصيلة فى النفس البشرية » المصدر السابق صفحة ١١٢.

والقول بأن الملكية الفردية غريزة، وأنها إنما تساير الفطرة انما هو، دينياً، خاطئ .. فالغريزة الأساسية هى « الحياة » وبسبب الخوف الذى احتوش الحياة منذ بدايتها - الخوف من الجوع، والخوف من الموت جوعاً - إلتوت غريزة الحياة فى التعبير عن نفسها، فاتجهت إلى إقامة الحوائل بينها وبين الجوع، ومن هنا نشأت الملكية الفردية .. فهى ليست غريزة، وانما هى صورة لإلتواء الغريزة .. ولو كانت الملكية الفردية غريزة تساير الفطرة، لكانت أولى بأن تكون سنة النبى الكريم، وهو صاحب الفطرة السوية .. فهو لم يكن يملك ما يزيد عن حاجته الحاضرة، وانما كان يصرف عنه كل ما زاد عن حاجته الحاضرة للحظته !!

ويدافع الاخوان المسلمون عن التفاوت فى الأرزاق، ويعتبرونه الصورة المثلى للعدل التى يرضى عنها الاسلام .. يقول الأستاذ سيد قطب: « لا يفرض الإسلام إذن المساواة الحرفية فى المال لأن تحصيل

المال تابع لاستعدادات ليست متساوية، فالعدل المطلق يقتضي أن تتفاوت الأرزاق، وأن يفضل بعض الناس بعضاً فيها)) - المصدر السابق صفحة ٣٢. هذا هو رأى سيد قطب.. وهو رأى خاطئ، وضار في آن معاً.. وهو إنما كان خاطئاً وضاراً لأنه ضد التوحيد وضد تكافل المجتمع - ضد التوحيد وضد الاشتراكية.. ففي الدين إن هذا التفاوت الظاهر الذى انبنت عليه الدخول المتفاوتة، إنما هو نفسه امتحان لنا، لينظر ربنا إلى عملنا في دخلنا الزائد، هل نعلم أنه رزق الآخرين الذين حرموا من المواهب الظاهرة في كسب المال، لنوصله إليهم، ونكون على ذلك من الشاكرين لله، على اختصاصه لنا بأن جعلنا سبيلاً لإجراء أرزاق عباده على أيدينا، ثم على أن وفقنا في امتحانه لنا فعلمنا أن الزائد عن حاجتنا من دخلنا ليس هو ملكنا، وإنما هو ملك من يحتاجونه في اللحظة الحاضرة، ثم على أن قد قدرنا على أنفسنا فلم يقعد بنا الشح عن أن نوصل الحق لأصحاب الحق؟!

والادخار إنما هو نقص في قولنا ((لا إله إلاّ الله))، وهو استجابة للخوف الذى أملى علينا سوء الظن بالله: ((الشيطان يعدكم الفقر، ويأمركم بالفحشاء.. والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً.. والله واسع عليم * يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً.. وما يذكر إلاّ أولوا الألباب)) و ((الفحشاء)) هنا تعنى البخل.. وإنما عن البخل جاء الإدخار، وجاء حب التملك، وهو من خوف الفقر.. و ((الحكمة)) المشار إليها هنا هي معرفة أسرار الدين في أمر المال، وأمر الملكية.. ولا عبرة هنا بالأمر الشرعى وذلك حين قال: ((ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولا

تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً..)) وهو إنما لم يكن به عبرة هنا لأنه إنما جاء تجاوباً مع حرصنا، وخوفنا من الانفاق، ومن ترك الادخار.. وهو ليس مراد الدين بالأصالة ، وإنما هو تدريج لضعفنا نحن، وغيره أولى بنا لو كنا نعلم، ولو كنا نستطيع، إذ ((لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)).. وهذا الأمر جميعه إنما ترشدنا إليه هذه الآية: ((والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق، فما الذين فُضِّلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم، فهم فيه سواء.. أفبنعمة الله يجحدون ؟؟)) وروح هذه الآية في قوله تعالى: ((فهم فيه سواء.. أفبنعمة الله يجحدون ؟؟)) ففيها إشارة المساواة، وفيها توبيخ خفيف، ولطيف، على تركنا المساواة بخلاً، وجحداً، لا بنعمتنا، في الحقيقة، وإنما بنعمة الله !!

الفصل السادس

الأخوان المسلمون والمرأة

حقوق المرأة بين الشريعة والدين

لقد جاء الاسلام فوجد المرأة في المجتمع الجاهلي، وهي تسلب حق الحياة.. فتوأد حية.. ((وإذا الموءودة سئلت* بأي ذنب قتلت !!)) لأنها في نظر ذلك المجتمع مجلبة لعار السبي، ولذل الاملاق، ولذلك كانت توهب، وتباع، وتسبى، وتسلك في عداد الرقيق.. كما جاء الاسلام فوجد العرف الاجتماعي الموروث، والسائد، هو أن يفرض الرجل على المرأة وصاية غاشمة، لا حق،

من حقوق الحياة، والحرية، لها فيها.. والمرأة وهى تنوء بموروث قديم من مظاهر هوانها، وضعفها، أصبحت ناقصة العقل لقلة تجربتها الحياتية، ضعيفة الشخصية لما ترسب فيها من عقد النقص..

ومن ثم، فقد اتخذ الاسلام أسلوب التدريج فى النهوض بالمرأة، آخذاً فى الاعتبار مقدرتها، هى، على التطور، ثم مقدرة المجتمع على استيعاب تطورها.. وقد كان ذلك التدريج نفسه بمثابة الطفرة، قياساً بوضع المرأة فى المجتمع العربى الجاهلى، أو فى المجتمع الدولى، يومئذ، فجعلت الشريعة الاسلامية المرأة على الربع من الرجل فى الزواج، وعلى النصف منه فى الشهادة، وفى الميراث، وأعطته حق الطلاق، وسائر حقوق الوصاية عليها.. وآية الشريعة التى تقوم عليها هذه الوصاية هى: ((الرجال قوامون على النساء، بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم، فالصالحات قانتات، حافظات للغيب، بما حفظ الله، واللاتى تخافون نشوزهن، فعظوهن، واهجروهن فى المضاجع، واضربوهن.. فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً.. إن الله كان علياً كبيراً)).. وواضح أن المفاضلة بين الرجل والمرأة إنما كانت قائمة على إعتبارات تاريخية: فالرجل إنما كان يمتاز على المرأة فى مجتمع الغابة، الذى وجد هما فيه الإسلام، بالمقدرات الجسدية، التى أتاحت له فرص حماية المرأة، والنفقة عليها.. فاذا تحول المجتمع إلى المدينة، سقطت أسباب تلك القوامة بتحول الفضائل من القيمة الجسدية إلى القيمة الفكرية والخلقية، وبحوالة الحماية على القانون، والنفقة

على الكفالة الاجتماعية، في النظام الاشتراكي..

وآية المساواة بين الرجال والنساء، في الحقوق والواجبات، هي: ((ولهن مثل الذي عليهن، بالمعروف، وللرجال عليهن درجة..)).. فإذا ساوت واجبات المرأة واجبات الرجل، وجب أن تساوي حقوقها حقوقه.. وإنما تستمد المساواة بين الرجال والنساء أمام القانون من مبدأ المساواة بينهما في المسئولية الفردية أمام الله: ((ولا تزر وازرة وزر أخرى)).. و ((كل نفس بما كسبت رهينة)).. فقرض الدين الأساسي أن تكون المرأة مسئولة، مسئولية فردية كاملة، أمام المجتمع، كما هي، كذلك، أمام الله تعالى.. وما حال بينها وبين ممارسة هذه المسئولية أمام المجتمع في الماضي إلا الملابسات التاريخية التي جعلتها على درجة من القصور استوجبت وصاية الرجل عليها.. وبزوال تلك الملابسات، التي أشرنا إليها في هذا الفصل، يعود وضع المرأة إلى حيث مراد الدين بها من تمام المساواة، في الحقوق والواجبات، مع الرجل..

واليوم قد صار من العرف غير المنكر أن تؤدي المرأة، في الحياة العامة، نفس الواجبات التي يؤديها الرجل.. وسيجئ الإسلام يوم يجئ عائداً من جديد، ليجعل واجبها الأساسي، وهو الأمومة، أكبر من سائر الواجبات التي يؤديها الرجل، وذلك مما يزيد في حقها، لأن به مزيداً من عرفان واجبها.. والاسلام، حينما يجئ إنما يجئ ليوجه هذا العرف الذي يتجه نحو تحقيق كرامة المرأة، فيجنبه مثالبه، ويتسامى به إلى مراد الدين الأساسي بالمرأة من أن تكون مسئولة، قيمة بأمر نفسها، عفيفة، طيبة السيرة.. وذلك

عن طريق التربية على المنهاج النبوي في المقام الأول، وعن طريق تشريع المسئولية، والحرية، في المقام الثاني.. إن مراد الدين، بالأصالة، هو المساواة التامة بين الرجال والنساء في الحقوق والواجبات، وهذا لا يتحقق إلا بتطوير الشريعة الإسلامية من آية القوامة إلى آية المساواة..

الاختلاط بين الشريعة والدين

ومن صور قوامة الرجال على النساء في الشريعة الحجاب، ومنع النساء من الاختلاط بالرجال.. ومن آيات الحجاب: « وقرن في بيوتكن، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » ومنها: « وإذا سألتموهن متاعاً، فاسألوهن من وراء حجاب ».. ذلك بأن النساء، يومئذ، لم يكن في مستوى النهوض بمسئولية الاختلاط والسفور.. ولذلك لم تعط الشريعة المرأة حقها كاملاً في مسئوليتها عن عفة نفسها، وإنما جعلت هذا الحق للرجل، فصار عليه أن يضرب الحجاب على من يقوم بولايتهن من النساء..

وللحجاب في الشريعة الموروثة صورتان: الحجاب بالبيت، والحجاب بالثوب. أما الحجاب بالقرار في البيت: « وقرن في بيوتكن » فهو القاعدة في تلك الشريعة.. وأما الحجاب بلبس الثوب عند خروج المرأة لكسب عيشها، حينما لا يكون لها عائل من الرجال، فهو استثناء من تلك القاعدة اقتضته الضرورة في تلك الشريعة، ولدى هذه الضرورة كان يباح للمرأة السفور، وهو الكشف عن وجهها، ويديها، ولا يباح لها التبرج (وهو إبراز المفاتن، والظهور بالمظهر

الخليع)... كما يباح لها الاختلاط بالرجال، ولا تباح لها الخلوة (وهى إختلاء المرأة بالرجل الأجنبى بحيث يأمنان الأ يطلع عليهما أحد من الناس)

والضرورة، فى الشريعة الموروثة، التى تبيح للمرأة السفور، والاختلاط إنما هى صورة لإنفتاح هذه الشريعة على التطور.. ذلك بأن النساء، اليوم، قد خرجن، سافرات، مختلطات، فى كل مجالات الحيــاة، لضرورات العرف الذى يسير فى إتجاه غرض الدين - كخروج المرأة للتعليم، وللعمل - العمل من أجل كسب عيشها، ومن أجل نضج شخصيتها بزيادة تجربتها..

ويجئ البعث الاسلامى، اليوم، ليرشّد هذا العُرف عن طريــق التربية، وعن طريق القانون.. فهو، أولاً، إنما يربى المرأة على المنهاج النبوى فى العبادة، وفى العادة، لتكون عفيفة، صيّنة، مسئولــة، حسنة التصرف فى حرية السفور، والاختلاط.. ثم هو، ثانياً، إنما يجعل القانون هو الوصى عليها، تمارس تحت ظله هذه الحرية، وهى تتحمل مسئولية ممارستها، فيصادر منها هذه الحرية إذا أساءت إستعمالها، بالتبرج، أو الخلوة.. فإن التبرج والخلوة سيظلان ممنوعين فى التشريع الإسلامى المطور كما كانا ممنوعين فى الشريعة الاسلاميه الماضية، والآية التى توقع بموجبها العقوبة على من تسئ حرية السفور والاختلاط هى: ((واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم، فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً !!)).. والفاحشة، هنا، كل عمل يعد طرفاً من الزنا، وإن لم يبلغ مستوى الزنا، وذلك كالتبرّج والخلوة، فإن عقوبة الزنا ليست

هى كما جاء فى هذه الآية من عقوبة، فإن كانت عقوبة الزنـــا قد جعلت هى السبيل المذكور فى هذه الآية الكريمة ..

هذا والاختلاط النظيف، المؤدب بأدب الدين، إنما هو عرض من أكبر أغراض الدين، وحكمته، فى الدين، إنما تقوم على هذه الأسس :-

(١) الاختلاط ليس غاية فى ذاته، وإنما الغاية الحرية.. والحرية هى أصل أصول الإسلام، لأنها حق مقدس للرجال، والنساء، على السواء.. وللحرية، كحق، ثمن، هو حسن التصرف فيها.. وحكم الوقت الراهن يقضى بأن تكون المرأة مساوية للرجل، تمام المساواة، فى المسئولية الفردية، ترفع عنها، كما ترفع عنه، سائر قيود الوصاية، لتمارس الاختلاط، ولتتحمل نتيجة هذه الممارسة إجتماعياً، وقانونياً.. لا وصاية على الرجل إلا من القانون، ولا وصاية على المرأة إلا من القانون.. والتربية تعينها، وإنما تكون التربية لكليهما باتباع منهاج محمد فى العبادة، وفى العادة - فى العبادة وفى المعاملة..

(٢) مراد الإسلام الأساسى تحقيق عفة المرأة.. وهذه العفة إنما تجئ نتيجة التربية المسددة، وفق المنهاج النبوى.. والعفة لا تتحقق ولا تنضج، ولا تظهر، إلا بالإختلاط، لأن الاختلاط إنمـا يهيئ للمرأة بيئة إجتماعية متكاملة، فيها تمتحن ممارستهـــا الخاصة فى العبادة، وتصحح موازين القيم عندها.. فالعفة الحقيقية ليست فى الحجاب، وإنما هى فى الإختلاط النظيف الرشيد..

(٣) يهيئ الإختلاط أمام المرأة فرصاً واسعة من التجربة والممارسة الضرورية لنضوج عقلها.. فإن من أسباب نقصان عقلها، الذى بسببه فرضت عليها وصاية الرجل نقصان تجربتها الحياتية بسبب الحجاب..

رأى الاخوان المسلمين فى الاختلاط

والاخوان المسلمون، وهم لا يدركون مرحلية أحكام الشريعة فيما يتعلق بحقوق المرأة، إنما هم مقيمون، من الناحية النظرية، على مبدأ قوامة الرجل على المرأة، الذى إقتضاه حكم الوقت فى الماضى، والذى يمنع المرأة من ممارسة حق السفور والإختلاط إلا لضرورة ضيقة - هى ضرورة كسب العيش الشريف بالعمل الشريف خارج المنزل..

فالشيخ البنا يرى أنه من ضمن خطوات الاصلاح، اليوم: «منع الاختلاط بين الطلبة والطالبات، واعتبار خلوة أى رجل وامرأة لا تحل له جريمة يؤاخذان عليها)) ص ١٩٤ «مجموعة رسائل حسن البنا»).. فالشيخ البنا يربط ربطاً مباشراً بين الإختلاط والخلوة وكأنهما صنوان مثلا زمان.. مع أنه، حتى فى مستوى الشريعة المرحلى، قد يتم الإختلاط، للضرورة، ولا تقع الخلوة.. والشيخ البنا لم يعط الصورة التى يتم بها تعليم المرأة، الذى لم يقل بمنعه، وإنما قال: «يمنع الإختلاط بين الطلبة والطالبات»!! كيف يمكن أن تتلقى الفتاة تعليمها من غير أن تخرج سافرة، مختلطة، فى الشارع، والمركبات العامة؟؟ كيف يدعو الشيخ البنا إلى منع الاختلاط بين الطلبة والطالبات بينما يشيع الإختلاط بين الفتيان والفتيات، فى المجتمع المصرى الذى عاصره البنا فى كل مجالات الحياة؟؟ اللهم إلا إذا كان البنا يرى أن يضرب الحجاب على المرأة المعاصرة، مرة أخرى، بصورة تامة، وفى ذلك من قلة الإدراك لحكمة الحجاب التى تقتضى موقوتيته ما ينافى مع مراد الدين بالمرأة من الكرامة، ومع تطور المجتمع، وتطور المرأة،

من المقصود إلى النتيجة - كما بيّناً في هذا الفصل ..

ويرى الشيخ البنا أن من ضمن خطوات الاصلاح، ايضاً، من نفس الصفحة ومن نفس المصدر: ((إعادة النظر في مناهج تعليم البنات ووجوب التفريق بينها وبين مناهج تعليم الصبيات في كثير من مراحل التعليم ..)) .. فالشيخ البنا يرى ألا تتلقى الفتاة، اليوم، نفس التعليم الذي يتلقاه الفتى، وبذلك يرى الا يكون لها حق المساواة مع الرجل في التعليم .. ذلك بأنه مادامت المرأة، وبخاصة في المجتمع المصري الذي عاصره البنا، قد خرجت سافرة، مختلطة، تشارك الرجل في جميع مجالات الحياة العامة يجب أن يكون التعليم إعداداً كاملاً لها، وترشيداً شاملاً لها، لتمارس هذه الحياة، وحقاً متساوياً لها مع الرجل، وهو يمارس نفس الحياة .. وإعادة النظر في مناهج تعليم البنات والأولاد، على كل حال، ليس بالأمر الهيّن، اليسير، الذي يمر عليه صاحب دعوة إلى الاسلام كالشيخ حسن البنا بهذه البساطة، وهذا اليسر، فإنه، إنما هو، جوهر دعوة كل داع إلى الاسلام، وفي الوقت الحاضر بالذات .. ولكن الشيخ البنا لا يرى أن يفصّل دعوته، ورأيه في هذا اوردناه آنفاً، وعلقنا عليه بما يكفي، ويغني عن تعقيبه هنا.

تقلّد المرأة لمناصب الدولة عند الاخوان المسلمين

يقول أبو الأعلى المودودي، الذي يعتبر الاخوان المسلمون كتاباته من مصادرهم الفكرية الأساسية: ((الرجال قوامون

على النساء »... « لن يفلح قوم وَلّوْا أمرهم امرأة »... هذان النصان يقطعان بأن المناصب الرئيسية - في الدولة - رئاسة كانت، أو وزارة، أو عضوية مجلس الشورى، أو إدارة مختلف مصالح الحكومة، لا تفوض إلى النساء .. وبناء على ذلك فمما يخالف النصوص الصريحة أن تنزل النساء تلك المنزلة في دستور الدولة الاسلامية، أو أن يترك فيه مجال لذلك، وارتكاب تلك المخالفة لا يجوز البتة لدولة قد رضيت لنفسها التعبد بطاعة الله ورسوله) - الكتاب المترجم للمحاضرة التي ألقاها بمراكش في نوفمبر ١٩٥٢--

تناقضات الأخوان المسلمين وحقوق المرأة :

والاخوان المسلمون إنما يقفون، (يقف بعضهم فهم غير منقفين)، مع وضع المرأة المرحلي في الشريعة - نظرياً .. بينما هم يخرجون عن هذه الشريعة خروجاً صريحاً في ممارساتهم اليومية. فرجالهم ونساؤهم إنما يمارسون الاختلاط بصورة طبيعية في دور العلم، وفي المكاتب، وفي المجالات السياسية، وفي كل مكان !! بل إن الاخوان المسلمين في السودان قد أعطوا المرأة حق التصويت؛ وحق الترشيح، على قدم المساواة مع الرجل، في الإنتخابات قبل ثورة مايو، وكانوا يقومون بالعمل على كسب صوتها في تلك الانتخابات !! هذا بينما وقف ممثل الاخوان المسلمين في الجمعية التأسيسية، محمد صالح الكاروري، يطالب بحرمان المرأة من حق الانتخاب !! جاء في جريدة السودان الجديد بتاريخ ٧/٢/١٩٦٧: «الكاروري

يطالب بحرمان المرأة من حق الإنتخاب ـ محمد صالح الكاروري :
طالب بعدم السماح للمرأة بحق الانتخاب والترشيح وقال : وذلك حفاظاً عليها لأنها قارورة، والقارورة إذا عرضت للاحتكاك والمصادمات لا بد أن تنكسر. وقال : ان المرأة يجب أن يكون مكانها البيت لتتفرغ للأمومة والطفولة ورعاية الأسرة)) !! ومع ذلك دفع الاخوان المسلمون، بمرشحتهم، ثريا أمبابى، الى دوائر الخريجين فى انتخابات الجمعية التأسيسية، وظلوا يرشحون الاخوات المسلمات لعضوية إتحاد طلاب جامعة الخرطوم !! واليوم فإن الأخوات المسلمات عضوات فى المجلس الأربعينى لهذا الاتحاد، وعضوات فى اللجنة التنفيذية لـه !!

وقد قدمت جماعة الأخوان المسلمين إمرأة شابة لتحاضر طلبة معهد المعلمين العالى فى بعض شئون المرأة المسلمة عام ١٩٦٥ ـ تلك المحاضرة الشهيرة التى تداعت الأحداث على أثرها إلى حل الحزب الشيوعى ـ كما سنرى فى هذا الكتاب ـ

هذه صورة لتناقضات الإخوان المسلمين مع الشريعة، ومع العصر، ولتخبطهم بينهما.. وقد ذهب زعيم الأخوان المسلمين، بالسودان، الدكتور حسن الترابى، فى محاضرة له بجامعة الخرطوم، فى ديسمبر ١٩٧٧ ليقول : ((للمرأة حرية ألا يكون للرجل قوامة عليها، ذلك الا تتزوج)) !! وبذلك رفع الدكتور الترابى قوامة الرجل على المرأة مالم تكن متزوجة !! مما يخالف عموم هذه القوامة فى الشريعة.. هذا، وإن المرء ليأسف أشد الأسف، لما اتجه إليه بعض كتابهم من نظرة غير انسانية للمرأة.. لا سيما الأستاذ محمد قطب فى كتابه ((شبهات

حول الإسلام» .. فقد قال، وهو يتحدث عن تأديب الرجل للمرأة في الشريعة: «وهنا شبهة الإهانة لكبرياء المرأة، والفظاظة في معاملتها، ولكن ينبغي أن نذكر من جهة أن السلاح الاحتياطي لا يستعمل إلا حين تخفق كل الوسائل السلمية الأخرى. ومن جهة ثانية أن هناك حالات انحراف سيكولوجي لا تجدي معه إلا هذه الوسيلة. وعلم النفس يقرر ألا تخفق الوسائل السابقة مع شخص إلا أن يكون في الغالب - مصاباً بانحراف جنسي - سيكولوجي يطلقون عليه اسم «الماسوشزم» فلا يطيب مزاجه ولا يعتدل إلا بعد تلقي معاملة قاسية حسية ومعنوية!! وإن هذا اللون من الانحراف أكثر حدوثاً في النساء منه في الرجال (إذ يصابون أكثر بانحراف «السادية») وهو الالتذاذ بإحداث القسوة»!! ص ١٣٦ - ثم يمضي الأستاذ محمد قطب ليقول، في هذا الكتاب، حول تعدد الزوجات: «وهناك حالات فردية معروفة لدى الفقهاء يكون تعدد الزوجات فيها ضرورة، منها الطاقة الجنسية الشاذة التي لا تكتفي بواحدة ولا يمكن لصاحبها الصبر عليها»!!

ونحن نترك هذه الآراء الغريبة لأحد كبار مفكري الأخوان المسلمين، من غير تعليق، فهي كافية لتتحدث عن نفسها!!

الفصل السابع

الإنصراف عن التربية عند الأخوات المسلمين

خصائص الداعية الاسلامى

إن على الداعية الإسلامى، المرشد، الذى يدعو إلى البعث الإسلامى، ويربى، ويرشد، تلاميذه ليكونوا دعاة إلى هذا البعث، أن عليه لأن يكون على نسق عال من التأسى بالسنة النبوية، بحيث يكون محبباً لها بعد إندثارها، فيكون له بذلك قدم عال فى العبودية، يتحقق له «بالاسلام» - وهو، فى سبحانه العليا، الاستسلام الراضى بالارادة الإلهية، من غير إعتراض عليها، لا فى السر، ولا فى العلن.. فينتضح هذا «الاسلام» على أخلاقه ليكون عزوفاً عن شهوة السيطرة على الآخرين، عزوفاً عن شهوة التملك.. فهو لا يسعى إلى السلطان، ولا يتخضع، ويتملق السلاطين، وهو على معيشة الكفاف التى يقتنع فيها بسد حاجته الماثلة.. ثم تنعكس هذه الحرية الداخلية على فكره صفاء، وعلى قلبه سلاماً، فينفذ، بفضل الله، ثم بفضل كل أولئك، الى معرفة حقائق الدين، فيستنبط منها من الحلول لمشاكل الحياة المعاصرة، عن وعى عميق بهذه المشاكل، ما يبرز فضيلة الاسلام على سائر الأديان، وعلى سائر الفلسفات.. وذلك فى صورة «فكرة» متكاملة، مصبوغة بصبغة التوحيد التى تتحلى بها نفس الداعية المرشد.. ثم هو كلف بتربية أتباعه على منهاج السنة النبوية هذا، فى العبادة، وفى العادة، بوعى شديد، وبتجويد دقيق.. وهو المنهاج الذى يوسع خبراتهم، ويبرز شخصياتهم، ويفجر طاقاتهم.. فيحمل الأتباع على تطبيق منهاج السنة النبوية، فى

أنفسهم، قبل مباشرتهم الدعوة إليه، وذلك حتى يقيموا الحجة على صدق دعوتهم بلسان الحال قبل لسان المقال، فإذا استقامت نفوسهم على الجادة أذن لهم في دعوة الناس، ثم هم، في هذا الصدد، من سعة الصدر بحيث لا ينكرون على الآخرين حقهم في الرأي، ومن حلاوة الشمائل بحيث يألفون، ويؤلفون حتى من الذين يخالفونهم في الرأي!!

هذا ما نرى أن تكون عليه صفات الداعية الراشد، والداعية السالك.. وهو ما نلتزمه، نحن الجمهوريين، في الدعوة الاسلامية الجديدة!!

الاخوان المسلمون والانصراف عن التربية

ونقص التربية، والترشيد، في تنظيم الإخوان المسلمين، إنما مرده إلى غلبة روح التنظيم على العمل التربوي.. وذلك بأن حركة الاخوان المسلمين قد نشأت على أساس المواجهات السياسية، والمصادمات الدموية، والتصفيات الجسدية، فصار الاهتمام عندهم يولي بما يقوم به عضو التنظيم من عمل خارجي في اتجاه العنف، أكثر من العناية بالتربية الداخلية.. وحتى ما يتلقاه عضو التنظيم من «تربية» إنما ليجعله على درجة عالية من المقدرة والحماسة لخدمة أغراض التنظيم «العنيفة»!!

والتعاليم التي يتلقاها الاخوان المسلمون من مرشديهم إنما لتعمق فيهم روح الوصاية، والاستعلاء، على كافة الناس ممن لا ينضوون تحت لواء تنظيمهم - فالأخ المسلم، ولو كان عمره في التنظيم

لا يعدو الأيام القليلة، إنما يوجه ليشعر بكمال دينه، وبنقصان دين الآخرين.. ومن ثم بروح الاستعلاء عليهم.. ويسمى الأستاذ سيد قطب ذلك: ((إستعلاء الايمان))، ويفرد له باباً كاملاً بهذا الاسم في كتابه: (معالم في الطريق).. وهذه التوجيهات إنما لها آثار تربوية سيئة، وسلبية في نفوس النشء، والشباب، بما تبذره في نفوسهم من الاستخفاف بقيم المجتمع، والجراة على الكبار.. وبما تصرف عنه النظر الى العيوب الذاتية، وذلك حيث يكون إهتمام الفرد منصباً على عدوه الخارجي!!

وليست مظاهر التعصب، والتشنج، والميل إلى العنف، والإرهاب، والاثارة، التي عرف بها الأخوان المسلمون، في جميع الأوساط، إلا اثراً طبيعياً لضعف قيمة التربية في هذا التنظيم.. ونورد هنا احد توجيهات وإرشادات، الشيخ حسن البنا الى الاخوان المسلمين: ((نحن أيها الناس ولا فخر، أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحملة رايته من بعده، ورافعو لوائه كما رفعوه، وناشرو لوائه كما نشروه، وحافظو قرآنه كما حفظوه، والمبشرون بدعوته كما بشروا، ورحمة الله للعالمين. ((ولتعلمن نباه بعد حين)).. أيها الاخوان المسلمون: هذه منزلتكم، فلا تصغروا من أنفسكم، فتقيسوا أنفسكم بغيركم!!)) !!

هكذا يضع الشيخ حسن البنا أعضاء تنظيمه في منزلة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي!! وهو، بدلاً من ان يدعوهم الى النظر الى دخيلتهم لإصلاح عيوب السلوك، يشغلهم بادعاء مقامات الصحابة، وبالفضيلة على كل أحد خارج تنظيمهم!!

وعند الأخوان المسلمين السلطة مقدمة على التربية، فهم يرون أن تفاصيل الفكرة الإسلامية أمر يجئ الإهتمام به بعد الاستيلاء على السلطة، معتمدين فى ذلك على فهم خاطئ لهذه المقولة الحكيمة: ((إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن))، وفاتهم أن السلطان المعنى، هنا، إنما هو ((السلطان)) الذى جسد القرآن، وتأدب بأدبه، وتربى بتربيته، وليس مجرد ((السلطان)) كما يسعون هم لاقامته بكل سبيل ... وإنما كان ذلك كذلك لأن القرآن العظيم تشرفه فى الصدور بأكثر مما هو فى السطور!! قال تعالى: ((بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ..))، فالسلطان، بهذا الفهم الجلى، يعنى تطبيق الشريعة الجماعية من تخلق، وتحقق، بظاهرها، وباطنها .. وهذا يعنى أن التربية بأدب العبادة والمعاملة أساس، وسابقة، على التطبيق الجماعى .. والمجتمع المطبقة عليه الشريعة الجماعية وسيلة، ومعين، على التربية الفردية .. والعكس غير صحيح تماماً ..

خاتمة الجزء الأول من الكتاب

تناول هذا الجزء الأول من الكتاب تنظيم الاخوان المسلمين من حيث ((الفكرة)) أما الجزء الثانى الذى يعقب هذا، من ناحية التسلسل المنهجى، فيتناول تنظيم الأخوان المسلمين من حيث ((الممارسة)) .. فلا غنى لقارئنا بأحدهما عن الآخر، إذ هما متكاملان، مترابطان .. يفضى الاول، وهو يطرح الخلفيات الفكرية لهذا التنظيم، إلى الثانى الذى يطرح إنعكاسات هذه الخلفيات الفكرية على الممارسات العملية لهذا التنظيم، بدء

بنشأة التنظيم في مصر، وانتهاء بمواقفه الراهنة من سلطة (مايو) في السودان !!

وتجب، هنا، وقد تناولنا «فكرة» الأخوان المسلمين، من حيث أنها تقوم على الفهم الديني السائد، اليوم، الذي يدعو إلى «تحكيم» الشريعة الاسلامية الموروثة، بجميع صورها، على حياتنا المعاصرة، بغير تطوير، أن نطرح الأسس التي تقوم عليها حكمة تطوير التشريع الاسلامي في الدعوة الإسلامية الجديدة.. داعين الأخوان المسلمين، بخاصة إلى مراجعة مواقفهم «الفكرية» و«الخلقية»، بإزائها:

(١) الشريعة، بالغة ما بلغت من السموق والتسامي، إنما هي، في نهاية المطاف، وسيلة لتحقيق كرامة الانسان، من ذكر وأنثى. وهذه الكرامة إنما تتحقق ببلوغ الانسان مبلغ الحرية، والمسئولية، وبالتشريع له في هذا المستوى.

(٢) تلتمس حكمة تطوير التشريع، أول ما تلتمس، في التوحيد، فإن كل ما خلا الذات الإلهية، فهو خاضع لسنة التطور والتطور، والشريعة من باب أولى، ذلك بأنها إنما تجيء لتنظيم طاقات الانسان وحاجاته، وهذه الطاقات والحاجات، إنما هي متجددة تجدد الحياة..

(٣) كمال الشريعة ليس في بقائها جامدة على صورة واحدة بحجة: «الشريعة صالحة لكل زمان ومكان»، وإنما كمالها في مقدرتها على التطور. فالشريعة ليست صالحة لكل زمان، ومكان.. وإنما الدين، بما اشتمل عليه من مستويين للتشريع، مستوى الوصاية، ومستوى المسئولية - كما بينا في مقدمة هذا الكتاب - هو الصالح لكل زمان، ومكان..

(٤) البعث الديني، حينما يجيء، إنما يجيء فيجد المجتمع البشري قد

كوّنَ شتى الأعراف التى تقوم عليها حياته، والتى إنما تقف الإرادة الإلهية الخفية وراء تكوينها، ومن هذه الأعراف ما هو حق مشوب بالباطل، ومنها ما هو حق، إذ لا يدخل الباطل المطلق فى الارادة الالهية، فيعمد البعث الدينى إلى محو ما هو باطل من هذه الأعراف، وإثبات ما هو حق: ((ويمحو الله الباطلَ، ويُحِقُّ الحقَّ بكلماته، إنه عليم بذات الصدور)).

(٥) الأصل فى الإسلام الحرية، وما جعلت الوصاية الرشيدة فرعاً منها إلاّ لأنها إنما إليها تؤدى.. ولذلك فإن نسخ آيات الحرية فى الماضى ليس نسخاً سرمدياً، وإنما هو إرجاء لها حتى تبلغ البشرية مبلغ الحرية فتبعث من جديد، ناسخة لآيات الوصاية، وكذلك تعود الأمور إلى أصولها.

(٦) الحرية حق يقابله واجب، هو حسن التصرف فيها، ولقد كانت الشريعة فى الماضى عادلة، وحكيمة، حينما لم تعط الفرد البشرى، يومئذ، من الحرية أكثر مما يطيق النهوض بواجب حسن التصرف فيه، ومن ثم فلا بد من تطوير التشريع اليوم، لئلا يُعطى الفرد البشرى من الحرية أقل مما يطيق النهوض بواجب حسن التصرف فيه.. إذ: ((لا يكلف الله نفساً إلا وسعها))، وإذ ((لا يظلم ربك أحداً))

(٧) يشمل تطوير التشريع الإسلامى أوجه الحياة التى تخضع، بصورة أظهر، لحركة التطور، كالسياسة، والاقتصاد، والاجتماع، ولا يمس تشريع الحدود والقصاص، ولا تشريع العبادات، ما خلا الزكاة ذات المقادير.. فتشريع الحدود والقصاص أدخل فى أصول الدين الثوابت لأنه صورة لقانون المعاوضة فى الحقيقة، والذى يقوم وراء العقيدة:

((فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره))، كما هو يحقق، وفي أرفع مستوى، التوفيق بين حاجة الجماعة إلى الأمن، وحاجة الفرد إلى الحرية، في وقت واحد .

هذه هي أسس فكرة تطوير التشريع .. وصورة هذا التطوير، كما بيّناها في مقدمة هذا الكتاب، إنما هي الإنتقال من نص فرعي في القرآن الكريم إلى نص أصلي فيه - أو بمعنى آخر جعل شريعة النبي الفردية (سنته) شريعة جماعية لعامة الناس ..

ونحن نتوجه إلى الاخوان المسلمين ليعيدوا النظر في فكرة البعث الإسلامي على ضوء هذا الفهم الصحيح، ذلك بأننا إنما نبغيهم الخير، ولا نألو جهداً في توصيله إليهم - ثم نحن لا نحمل إزاءهم أي ضغن، مهما بلغوا في معارضتنا مبلغ الشطط، وكثيراً ما يفعلون فيخرجون، في هذه المعارضة، عما يليق بالدعاة الاسلاميين !!

هذا وإلى الجزء الثاني من الكتاب، الذي يرصد ابرز مواقف الأخوان المسلمين في مصر، وفي السودان، من حيث أنهم تنظيم كَلِف، أشد الكلف، باحراز السلطة، ويستغل في هذا السبيل الدعوة إلى الدين، فيتورط، من حيث لا يشعر، في تشويه صورة الدين ..

والله المستعان ..

الاخوان الجمهوريون

أم درمان ص.ب ١١٥١ تلفون ٥٦٩١٢

الطبعة الأولى ٣١ أغسطس ١٩٧٨ الموافق ٢٧ رمضان ١٣٩٧